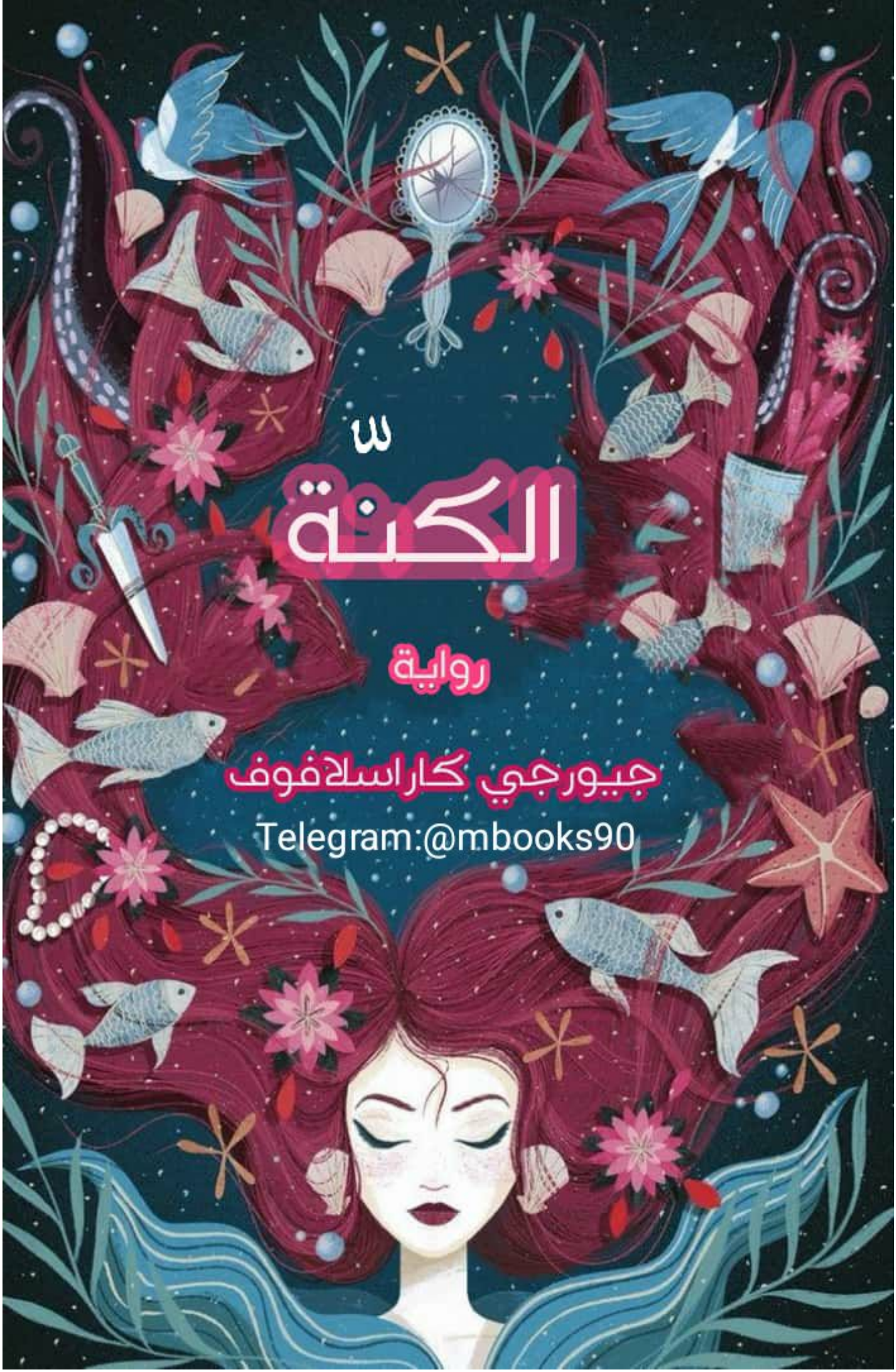

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للدراسات والترجمة والنشر
دمشق ــ اوتوستراد المزة
هاتف ٨١٦١٢٦ ــ ٨٨٦٩٥١
تلكس ٤١٢٠٥٠
ص . ب : ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسدار
TLASDAR

ريع الدار مخصص
لصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي السوري

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكنّة

(رواية)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٥٨٧٠١
٢٠٠٧/٤/١٩م

جيورجي كاراسلافوف

الكنّة

(رواية)

ترجمة : حسين راجي

قدم لها

علي عقلة عرسان

رئيس اتحاد الكتّاب العرب

في القطر العربي السوري

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المقـدّمـة

Telegram:@mbooks90

بقلم : علي عقلة عرسان

هذه الرواية تتصل اتصالا وثيقا ببيئتها وزمنها، وتقدم شخوصا وعلاقات اجتماعية وسلوكا وقيما ومعاناة تصور الريف البلغاري اجتماعيا في النصف الأول من هذا القرن وتمثله تمثيلا صادقا.

ورغم ان، بل ولأن، جذور هذه الشخـــوص والمشكلات المعروضة عميقة الغور في بيئتها المحلية لذلك حملت شيئا من الشمول الانساني يجعل المطلع على النص متفاعلا مع مايجري متفهما للدوافع ومتأثرا به تأثرا مباشرا،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لانه ينبش من ذاكرته احداثا وعلاقات وشخوصا مماثلة على نحو لهذا الذي يعرضه له غورغي كاراسلافوف (١٩٠٤ ــ ١٩٨٠) مؤلف رواية «الكنّة». و«سيفدا» هذه الفتاة الريفية الفقيرة البريئة الاصيلة بطلة الرواية هي واحدة من أبناء ريفنا العربي بمعاناتها وظروفها ومشكلاتها بل عواطفها والشبه نفسه تقريبا ينطبق على نماذج مختلفة من الشخوص وربما على سائر العلاقات والاحداث والتطورات التي تفعل فعلها في تلك الاحداث وتصنفها. وربما كان مرد ذلك الى وقوع المنطقة لفترة زمنية طويلة تحت تأثير تيار حضاري اجتماعي متشابه هو التأثير الذي ساد مدة قيام الامبراطورية العثمانية.

كتب كاراسلافوف هذه الرواية عام ١٩٤٢ وتجري حوادثها في قرية قريبة من «بلوفديف» العاصمة الثقافية لبلغاريا، والشحصيات الرئيسية في هذه الرواية تكاد تكون ثلاثة فقط: يورتالان المزارع العجوز الدؤوب وابنه ستويكو،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكنته سيفدا. أما الشخوص الاخرى فتأتي في المرتبة الثانية من الاهمية، ولكن كلا منها يحمل مقوماته واستقلاليته ووضوحه ويشارك على نحو في تطوير الحدث ودفعه، وفي تصوير جانب انساني أو في تقديم نموذج بشري أو نوعا من أنواع العلاقات الاجتماعية القائمة بين الناس أو بعض القيم والمفاهيم السائدة في ذلك المجتمع.

○

في القرية الهاجعة تحت رحمة سحاب ينبعث من جبال الرودوبي، كان يورتالان يملك اكثر الحقول وأخصبها، ويقدم مثالا جيدا للريفي الدؤوب الذي لايعرف من الحياة سوى حب عمله وأرضه، والذي يكره الكسل والكسالى ويهزأ بهم. ويورتالان هذا حمل مرارات الواقع، وتحولت لديه الخبرة بالناس والحياة الى سلوك يبرز فيه الحرص الى درجة البخل واستغلال جهد الآخرين الى آخر قطرة، عاد بعد مشاركته في حروب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثلاثة من أجل وطنه الى القرية حيث اشترى من أحد رجال الكنـــيسة أرضا كانت بورا وضع الاخير يده عليها، «فاستصلح الارض وسمدها وزرعها وهو يردد المثل القائل من يزرع يحصد» وكان متفتحا على الجديد في ميدان الزراعة يجرب زراعة المحاصيل الجديدة ويدخل التقنيات رغم كرهه للعاملين بها، حلم باقتناء حصادة وفكر في ارسال ابنه الصغير اليكسي للتخصص في هذه الآليات وهو يملك مبالغ من الليفات تجعله بين الفلاحين الفقراء ثريا محسودا. وتخلقت زوجته بأخلاقه فأصبحت على شاكلته حرصا ودأبا أما ابنه ستويكو فكان مثالا للشاب النشيط الخلوق، وأخذ عن والده الحرص وحب العمل فكان يمضي الى الحقل مع الأرملة دوبرا وبناتها الثلاث اللواتي يستأجرهن والده لجمع المحصول فلايعود بهن إلا بعد ان «تعتم العين» ولايعود الشخص يرى ماأمامه.

أحب ستويكو فتاة بسيطة فقيرة هي «سيفدا» بنت كازالباشيف وبادلته الحب وتمنت هي وأمها ان تصبح كنة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ليورتالان أما والدها الذي يعرف يورتالان جيدا فلم يكن فرحا بهذا ولكنه كان مغلوبا على أمره، تمخض الحب عن زواج وانتقلت سيفدا الى بيت يورتالان وكانت في المساء تغتسل بحب ستويكو وعواطفه الصادقة من عناء الخدمة في بيت عمها فيتجدد عزمها على متابعة مسيرة الجهد الشاق وصولا الى الراحة المأمولة ولم تنجب لستويكو طفلا رغم التداوي بالأعشاب وزيارة الكنيسة وتقديم النذور ، وجثم هذا الهم على صدرها عمرا، ولم تجد منه مخرجا.

في بيت زوجها اطلعت سيفدا على حادثة مرت في حياة أسرة زوجها قبل الزواج وهي أن يورتالان الذي كان يتفقد حقوله بدأب ذهب يوما الى حقل الذرة البعيد وهناك صادف شابا يسرق الذرة ولم يشأ يورتالان ان يسكت على سارق سواء سرق من حقله أم من حقول الغير ، فيجب ان يكون حريصا على أملاك ومحاصيل سواه حرصه على أملاكه ومحاصيله، فطارد السارق ورماه بحجر فأرداه قتيلا وكان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السارق شابا من شباب القرية دفنه يورتالان مساء مع ابنه ستويكو في هضبة بعيدة وغاب ذكره الى الأبد وبقي تحت عبء تبكيت الضمير والخوف من ان تنكشف هذه الحادثة، وكادت تصرفاته توشي به اكثر من مرة.

روى ستويكو هذا الذي جرى لزوجته سيفدا عرضا وفي لحظة صفاء، وحملته الزوجة كَسِرٍّ من أسرار العائلة لايجوز البوح به حرصا على زوجها وعمها يورتالان وكانت تتلقى الاهانات من عمتها ومن ابنة عمها عندما تزورهم الاخيرة لماما، ولايصل بها الانفعال والغضب الى درجة تهديدهم بهذا الذي تعرف، كانت تتحمل المرارات والقسوة والبخل ومشقة العمل دون ان تذكر شيئا، وزوجها لايستطيع ان يتخذ موقفا حيال هذا الذي يجري معها، وهي تشعر بهذا وتتآكل من الداخل ولكن صوتها لم يرتفع احتجاجا في وجه الزوج الطيب ولو مرة واحدة.

مرض ستويكو «بالسمنة والكسل» ولم يصدق والده

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

انه مريض بل اتهمه بالاحتيال وبأنه ينفذ ماترسمه له عمته كازالباشيفا، وازداد مرضه واحتد ولم يفز ستويكو الذي اهتم طوال عمره بأعمال ابيه وحفظ سره، لم يفز باهتمام والده ولا بمعالجته له، وانما «فاز» باللعنة والتجهم والاحتقار. وأخذته زوجته سرا الى طبيب القرية وعندما علم يورتالان بذلك حاول ان يتأكد من أن ابنه مريض فسأل الطبيب وعرف ان ابنه مريض فعلا فلعن الطبيب والطب وبدأ يهتم بابنه ولكن في وقت متأخر، الامر الذي أسفر عن وفاة الابن في المشفى دون ان تحضر زوجته وفاته.

بقيت سيفدا في بيت عمها طبقا للتقاليد التي تقضي ببقائها سنة بعد وفاته. وكانت تسمع كلاما قاسيا وتعامل معاملة فجة، وسمعت عمها يقول لزوجته يوما «الما لاتعود هذه الفاجرة الى بيت أهلها ؟» وسكتت سيفدا ولكن عندما فاض الكيل يوما ذهبت الى أمها وأخبرتها بالأمر وقررت العودة الى بيت أهلها قبل انقضاء السنة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذهب والدها ليحضر أغراضها الشخصية فلم يوافق يورتالان على اعطائه إلا الصندوق ومننته يورتالانكا بأنها لم تفتح الصندوق مع أن المفروض أن يتم ذلك أمامها لان سيفدا كانت قد سرقت قطعة قماش خبأتها فيه.

ترك والد سيفدا كل شيء وعاد الى البيت وأخبر زوجته وابنته بما حصل فلم تحتمل سيفدا العاقلة الصامتة كل هذا وانفجر في عينيها غضب وصمت السنين وانطلقت لتوها الى بيت يورتالان قائلة:

«أنا التي سوف ألقن هذين المخلوقين المقيتين درسا يستحقانه بكل تأكيد».

في بيت يورتالان انتصبت سيفدا عملاقة في وجه شجرة السنديان العتيقة تلك، ورفعت صوتها عاليا يقويه الحق قائلة ليورتالان وزوجته:

لقد جئت لأخذ حقي بيدي! فأجابها يورتالان: اذا كان الأمر هكذا فإنك لن تأخذي حتى صندوقك. فأجابته

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سيفدا ببرود : واذا فضحتك وبينت للناس انك قاتل الصبي ابن استاروف ؟»

هنا اسقط بيد يورتالان وزوجه واتجه الكلام اتجاها آخر ، ولم تكتِف سيفدا بالمطالبة بالصندوق وبقطعة الارض التي كان يورتالان قد اشتراها لابنه ستويكو قبل وفاته ، بل اشترطت عليه أن يعطيها أيضا كرم العنب المثمر الذي يملكه في القرية اذا أراد منها السكوت ، وإلا يقضي بقية عمره في السجن وتعلوه الفضيحة ، لقد تحولت هذه الطيبة الخلوقة الى برغماتية مناورة ، وحصلت سيفدا على ماأرادت الحصول عليه وقهرت الطمع والحرص ويورتالان الذي لم يستطع اعداؤه في القرية قهره ، حتى حينما استعانوا بأصدقائهم من الساسة في المدينة وبأحزابهم التي وصلت الى الحكم .

○

هذه هي بإيجاز الاحداث الرئيسية التي قدمها لنا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كاراسلافوف في روايته «الكنة» وهناك احداث ثانوية وعلاقات صراع على امتلاك الارض، وكشف لعلاقات كانت بين الكنيسة والسكان حيث كان بعض القسس يستولون على أراض ثم يبيعونها وكل هذا اضافة الى صراعات الاحزاب السياسية في بلغاريا التي كان المؤلف يوقفنا على انعكاساتها الطفيفة على الفلاحين في الريف، لم نتعرض لها بتفصيل.

وقد تمكن المؤلف من تصوير البيئة بنجاح، ومن تقديم شخصيات تعبر عن علاقات اجتماعية وعن معاناة انسانية مع الطبيعة ومع الظروف ومع الغير، كما تمكن من الغور على بعض الدقائق في تكوين النفس البشرية وصاحب تلك النفس في قلقها وهواجسها وانشغالاتها وانفعالاتها خاصة عندما يقع الشخص في مأزق يأخذ مجامع نفسه، أو في مايمكن ان يكون اثماً أو عيباً يخفيه عن سواه.

والمؤلف حين يستبطن الشخوص ويغوص في داخلها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يحقق نجاحاً لابأس به، إلا اننا لايمكن ان ننظر الى رواية (الكنة) على انها رواية يعتمد كاتبها على التحليل النفسي للشخوص، ولايتقصد ذلك من قريب أو بعيد، بل يمكن النظر الى روايته هذه ــ الكنة ــ على انها عمل واقعي ينقل بيئةً وواقعاً اجتماعياً من خلال شخوص غرست جذورها في الأرض وحملت وجع المعاناة، ولم تنفصل عن أحلامها بمستقبل أفضل، ولا هي استكانت واستسلمت لقسوة الواقع، انها شخوص تجدد فيها الأمل رغم البؤس، واشرقت أمام بعضها الشمس رغم حلكة الظلام، وبقيت في نضال مستمر من أجل الافضل عبر مسيرة العمل، ومن خلال معايشة الواقع وعدم القفز فوق مشكلاته ومعطياته. وقد توافر للنص نفس انساني ونوع من الشمولية جعله مقبولاً من الآخرين مفهوماً منهم ومؤثراً فيهم، ورغم انتماء المؤلف السياسي فان هذا العمل خلا من الشعارات ومن الشخوص التي تثثر ايديولوجياً، ومن الافعال المدبّرة بقصد اظهار توجه سياسي ما. لقد انعكس الوضع من خلال الصراع أو بنتائجه ومن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خلال مايطفو منه على السطح، ويصل الى الريف على شكل «مختار» أو موظف، أو خبر أو اشاعة.

ولاتخلو بنية الرواية من خلخلة في الزمن الروائي احيانا، ومن قفز غيَّر من التطور المرتقب لحالة أو لشخصية أو فكرة قبل وصولها الى ذلك من خلال التطور المنطقي الذي يفرضه الواقع الفني وقبل بلوغها درجة التحول المنضج الذي يقتنع به القارىء. الأمر نفسه ينطبق على بعض الاحداث. ويلجأ المؤلف الى بذر معلومات تظهر كأنها مستدركة استدراكاً على النص ليبرر علم الشخصيات بها أو مرور الحدث على هذا النحو أو ذاك بعد توجهه اليه وتسجيله دون تمهيد مسبق ضمن البنية يؤدي اليه بصورة طبيعية. واللغة التي حملت الينا النص بشخوصه واحداثه وأفكاره لغة بسيطة، ولايسعى المؤلف الى جمالية تشغله بنفسها عن سواها، ولايهتم بروعة الأداء الأدبي بمقدار مايهمه الأداء نفسه، واللغة تنبع من البيئة ومن الشخوص وتتماشى معها تماماً وتعبر عنها بوضوح.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتقديم ترجمة هذا النص الى القراء العرب يشكل اضافة جيدة الى الجهد المبذول في مجالات التبادل الثقافي وإقامة الصداقة بين الشعوب على أساس من تكوين الوعي المعرفي بالآخر ، واستخدام هذا الوعي في سبيل تطوير مستقبل الحضارة الانسانية والحفاظ على تفاعلها الخلاق واستمرار تجددها على كوكبنا الجميل .

دمشق ١٩٨٥/٢/٥

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت العتمة قد بدأت تشف عن نجوم الليل الاولى ... والانسام تداعب رؤوس الأشجار الغامقة، وتتغلغل بين الأغصان، لتطرد حرارة اليوم الصيفي الحار، أما القرية الصغيرة فكانت قد بدأت تهدأ بالتدريج، وهي تستعد للرقاد بينما كان صوت رنين اجراس بعض القطعان وصرير بعض العربات المتأخرة العائدة الى القرية يقطع ذلك السكون الاعتيادي المبكر ... والمتكرر كل يوم.

كان المزارع العجوز « يورتالان » واقفا في الحديقة التي أمام داره ينصت الى كل ذلك باهتمام، عندما قال لنفسه فجأة: ها قد أتوا.. ثم تحول من مكانه، وأرهف سمعه من جديد، بيد أن بضع عربات مرت دون أن تتوقف أمام بيته فما كان منه إلا ان جلس القرفصاء مسندا ظهره الى جذع شجرة، واشعل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سيجارة، وراح يتأمل دخانها وهو يتغلغل في عنكبوت الظلمة الرقيقة.

كان المزارع العجوز « يورتـالان » ينتظـر عودة ابنه « ستويكو » مع الفلاحين الاجراء من حقل الذرة، ولم يكن هؤلاء الفلاحون سوى الارملة « دوبرا » مع بناتها الثلاث، وقد تعود « يورتالان »، ان يستأجرهن دائما للعمل في زراعته، وذلك لما لمسه فيهن، وهو رب العمل الحريص، من اجادة للعمل، واخلاص فيه، لكن تأخرهم في العودة في تلك الليلة كان قد أزعجه بعض الشيء، فقد كان متعبا، ويريدهم ان يصلوا سريعا، مع ابنه « ستويكو » ليحدثوه عن محصول الذرة في ذلك الحقل البعيد الذي يمتلكه في وادي « كدزي »، والذي كان يصعب عليه أن يذهب اليه كثيرا، كما يفعل بالنسبة لحقوله الاخرى، لكنه عندما اطفأ سيجارته كان يقول في نفسه: لعلهم لم ينهوا عملهم بعد.. ثم لم تلبث هذه الفكرة ان أعجبته بعض الشيء.. فمن مصلحته ان يتأخروا، فان ذلك يعني انهم قد اشتغلوا اكثر، ولابأس في ان يتأخر هو عن نومه من أجل ذلك بعض الوقت وابتسم العجوز في الظلام، وهو يتذكر طبيعة ابنه « ستويكو »

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التي تشبه طبيعته، والذي لايمكن ان يأذن للعاملات بالتوقف عن قطاف الذرة إلا عندما يشعر انه لم يعد بامكانهن أن يأتين بأية حركة من شدة التعب، لكن « يورتالان »، مع ذلك، عاد ليقول لنفسه: اذا لم يكونوا قد انجزوا حجما مقبولا من العمل هذا اليوم، فلابد من ان اذهب غدا الى الحقل، مهما كان بعيدا، وارى بنفسي، فليس معقولا ان ادفع الاجرة، دون أن أتأكد من حسن سير العمل... وحمل هما ثقيلا عندما تذكر المهمة التي تنتظره..

سمع « يورتالان » صوت وقع أقدام زوجته « يورتالانكا »، التي كانت في المطبخ، خلفه، فالتفت اليها قائلا:

ـــ هل أعددت الطعام ؟

ـــ أي طعام ؟... عندي جبن وخبز..

ـــ والصغير ماذا يفعل ؟

ـــ أنت تعرف « اليكسي ».. انه لايمكن أن يأكل وينام إلا اذا رأى اخاه.

ـــ كل أولاد القرية الذين هم في مثل سنه قد ناموا.

ـــ لكنه مع ذلك لايمكن ان ينام..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـــ أنا جالس هنا انتظر عودة « ستويكو » مع « دوبرا » وبناتها.

ـــ سيعودون الآن .. لن تأكلهم الدببة ..

وسمع الابوان صوت ابنهما الصغير مناديا :

ـــ امي .. امي .. ألم يأتوا بعد ؟

ـــ الآن ياحبيبي .. الآن يا عين أمك .. سيصل أخوك ... وسنتعشى جميعا .

قال يورتالان لزوجته :

ـــ اعطي الولد شيئا يأكله .. انه جائع .

فأجابته زوجته متأففة :

ـــ اف .. كم تأخروا ..

ـــ أما قلت : لم تأكلهم الدببة ؟

ـــ ولكن متى ستتعشى هؤلاء النسوة ؟ ... ومتى سينمن .. لن يستيقظن باكرا .

ـــ انت لاتقلقي من أجل راحتهن .. سيتدبرن أمرهن .. هيا اذهبي الى المطبخ .. وقدمي شيئا لاليكسي .. هل تفهمين ؟

ـــ انت هكذا دائما .. عصبي .. ولا يعجبك شيء .. رأيتك جالسا وحدك .. وجئت أسليك ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبينما الزوجان في أخذ ورد .. سمعا صوت عربة تقترب من بيتهم .. فقال يورتالان :

ـــ هاقد أتوا .. ثم قفز ليستقبلهم سائلا :

ـــ هل قطفتم مزيدا من العرانيس ؟

أجابته الارملة « دوبرا » :

ـــ نعم .

فعلق يورتالان بقوله :

ـــ حسنا فعلتم .. ثم تنفس الصعداء .

لما نزلت الارملة من العربة، اقتربت من « يورتالان » وزوجته ، وقالت :

ـــ انتم تعرفون حقلكم .. لقد قطفنا الى أن وصلنا الى شجرة الاجاص .. ولم يسمح لنا « ستويكو » بالتوقف عن العمل، إلا عندما تأكد انه لم يعد بامكاننا ان نرى عرانيس الذرة في العتمة ..

ـــ حسنا فعل ستويكو .. قال « يورتالان » ذلك، ثم التفت الى زوجته آمرا : هاتي المصباح من المطبخ الى فوق المصطبة ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اغتنمت « دوبرا » الفرصة وسألته :

ـــ هل تريد أن تحاسبنا على ضوء المصباح ؟

اجابها يورتالان بلهجته الجدية :

ـــ هيا .. هيا ادخلوا .. سوف تأكلون ، ثم نتحدث ..

وهنا تدخلت زوجته « يورتالانكا » موجهة كلامها للارملة « دوبرا » :

ـــ وأنا يا« دوبرا » مثلكم .. لم أكن في البيت .. كنت أعمل في البيدر .. ولم أطبخ .. لذا فانني سوف أضع لكم على المائدة ما هو موجود ..

فأجابتها « دوبرا » :

ـــ في الموسم .. ليس من واحدة منا متفرغة لاعداد الطعام .. سنأكل من الموجود ..

فالتفت يورتالان الى زوجته وقال :

ـــ اسمعي ياامرأة .. دعيني أقل أنا الاخر شيئا .. انت قدمي لهن خبزا وجبنا .. وهن حرات في أن يأكلن .. أو يرمين ماتقدمينه لهن ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فأجابته زوجته :

ـــ بالنسبة للرمي .. لا .. لن يرمين شيئا .. خبزي ناضج .. وجبني مشهور ! قاطعتها الارملة «دوبرا» قائلة :

ـــ ليس المهم الطعام .. اننا بحاجة الى دراهم .. انتما تعرفان أن العيد قريب .. والبنات يرغبن في شراء بعض الاشياء ..

صمت يورتالان ، وحك جبهته ، ثم رفع رأسه . وأجابها :

ـــ نحن نعرف ذلك .. ولكن الا يمكن أن نجري الحساب غدا ؟

ـــ لماذا ؟ .. لماذا غدا .. أمن أجل ان نضيع غدا مزيدا من الوقت ؟ ..

هز يورتالان رأسه .. وأجاب :

ـــ هيا .. هيا .. مادام الامر من أجل البنات .. فلنبدأ بحسابك أنت .. أنت لك عندي اجرة يومين .. خمس وعشرون ليفا عن اليوم الواحد ..

قالت الارملة « دوبرا » :

ـــ ولماذا خمس وعشرون ؟ .. ان اجرتي ثلاثون ليفا عن اليوم الواحد .. ألم تقل أنت بنفسك انك ستدفع لي ثلاثين ؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قطب يورتالان مابين حاجبيه .. وأجاب :

ـ أنا لم أقل شيئا .. من الذي سيدفع في مثل هذه الأيام ثلاثين ليفا ؟

ـ يدفعون .. كيف لا يدفعون ؟ .. انهم يدفعون اكثر ..

ماكان من « يورتالان » إلا ان اتخذ وضعية اكثر جدية وقال لدوبرا :

ـ ماهذا الكلام الفارغ ؟ .. ثلاثون ليفا في هذه الازمة ؟ .. هل جننت يادوبرا ؟..

اصطنعت « دوبرا » ابتسامة ما ، وقالت :

ـ على كل حال فان فارقا قدره خمس ليفات لن يزيد الطين بلة ..

ـ صحيح .. لكن الحساب حساب يادوبرا .. هنا خمس ليفات .. وهناك خمس ليفات .. وأنت لاتعرفين أنني لأطبعها.

ـ لاتهول الامور ياسيد يورتالان .. ثم لاتنسى ان لي عندك بقية حساب قدره خمسون ليفا ..

ـ ألم أدفعها لك ..؟

ـ كلا .. أبدا ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـــ هذا ممكن .. انني كثيرا ما أنسى .. وأنا أثق بك ..

ـــ هذا موضوع حق ياسيد يورتالان .. وانت رجل عادل ..

ـــ عادل .. عادل .. وماذا تفيدني هذه الصفة ؟ لكنك مادمت مصرة فانني سأدفع لك مئة ليفاً .. أي انني سأدفع لك الآن الخمسين ليفا التي تتحدثين عنها بالاضافة الى الخمسين ليفا .. أجرة اليومين الاخيرين .. مارأيك ؟

ـــ رأيي انه يجب ان تدفع لي أكثر قليلا .. ولكنك مادمت مصرا ايضا .. فليكن .. لكنني أرجوك ان تحاسب بناتي بمزيد من الانصاف .. التفت « يورتالان » الى ابنة (دوبرا) الكبرى واسمها « ستانكا » قائلا :

ـــ وأنت ياستانكا .. ياعين عمك .. هل ستعاملينني مثل أمك ..؟ أجابته : ستانكا باقتضاب :

ـــ نفس الحساب ..

ـــ ولكنك صغيرة ..

ـــ أنا لست طفلة .. بل عاملة كالاخريات .. هيا ياعمي اعطني مثل أمي .. وأمرنا لله ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يالغرابة طباعكن ..

ـــ جرب أن تشتغل مع غيرنا .. وستعرف أنك تظلمنا ..

ـــ حسنا .. حسنا .. وأنا أيضا أمري لله .. ولكن اذا دفعت لك مائة .. ولامك مائة .. فكم سأدفع لكل من شقيقتيك ؟

اندفعت أصغر البنات سنا .. وقالت له :

ـــ ستدفع لنا مثل أمي وأختي ستانكا ..

ـــ ولكنك يا« كينتشه » صغيرة .. لذا فانني سأدفع لك ثمانين ليفا .. ولاختك الوسطى ثمانين ..

عندما سمعت « بترانكا » الوسطى ذلك قالت له منفعلة :

ـــ لقد اشتغلت انا وأختي « كينتشه » كما اشتغلت أمي وأختي ستانكا .. فلماذا تريد أن تدفع لنا أقل ؟..

ـــ اسمعي يابترانكا .. ان للسن علاقة بالموضوع ..

ـــ أنا في السادسة عشرة من عمري ..

اصطنع يورتالان ممازحتها قائلا :

ـــ في السادسة عشرة من عمرك وتدعين انك كبيرة .. ؟.. أنت مخطئة ياعين عمك .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم تستطع أم البنات « دوبرا » ان تضبط نفسها، فقاطعته قائلة :

ـــ يكفيك ياسيد يورتالان تعذيب البنات، أقول لك الحق انني لم أكن اتوقع كل هذا ..

حدج يورتالان « الارملة دوبرا »، بنظرة لاتخلو من تأنيب، وقال :

ـــ أكملي .. أكملي .. لماذا سكت ايتها الطماعة ..؟

هزت « دوبرا » رأسها بأسف وقالت :

ـــ قل ماتريد .. فأنت هو رب العمل .. وما نحن إلا اجراء عندك .. لو كنا نملك قطعة أرض صغيرة تسد أودنا لما وقفنا بين يديك هذا الموقف .. ولكن يجب أن تفهم ياسيد « يورتالان » اننا لانطلب صدقة .. بل نطالب بثمن بعض جهدنا .. وأنت تعرف هذا جيدا ..

أجابها « يورتالان » بعصبية ظاهرة :

ـــ كفى .. كفى .. سأدفع .. سأدفع .. سأدفع ..

لم تستطع « بترانكا » ـــ الصغرى ـــ السكوت فقالت، له :

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ ستدفع طبعا .. تصور أننا استنكفنا عن العمل ؟.. ماذا ستفعل أنت ؟

فقال لها يورتالان :

ـ انت بالذات .. هذه آخر سنة تشتغلين فيها عندي .. وستتأكدين من هذا بنفسك في المواسم القادمة .. ثم التفت صوب المطبخ ونادى زوجته قائلا :

أين أنت يا امرأة ؟.. هاتي خبزة كبيرة .. وكمية من الجبن كي يتعشين ..

رغبت الارملة « دوبرا » ان تصلح الموقف فقالت له :

ـ شكرا ياسيد يورتالان .. انك تبقى انسانا طيبا على كل حال ..

لم يتفوه « يورتالان » بشيء .. بل مد يده الى جيبه، وحاسبهن جميعا، وهو يهز رأسه بهدوء واسى، ثم قال لهن عندما رأى زوجته تخرج من المطبخ حاملة صرة جعلت فيها الخبز والجبن ..

ـ الآن استرحتن وأخذتن أجرتكن .. وها هو ذا عشاؤكن ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخذت الأم وبناتها صرة الطعام شاكرات ، وودعن يورتالان وزوجته وخرجن يقصدن بيتهن .. بيد أن زوجة « يورتالان » ما أن اطبقت الباب خلفهن ، حتى التفتت اليه ، وقالت :

ـــ ضننت بقطعة الجبن ..

قال لها « يورتالان » :

ـــ هذا هو الشرط .. أجرة وعشاء .. ما العمل ؟..

ـــ لكنني شعرت انهن ينتزعن قلبي من صدري عندما قدمت لهن الصرة ..

ـــ يبدو ان قطعة الجبن كبيرة .. أليس كذلك ؟

ـــ كبيرة طبعا .. قطعة من أجل أربعة اشخاص ..

ـــ تعنين حوالي نصف الكيلو ؟..

ـــ لا .. ولكن اكثر من ربع ..

ـــ العوض عند الله .. ولكن لماذا تزعجينني بعد أن اعطيتهن الصرة ... وذهبن الى بيتهن ..

ـــ أردت أن أقول ..

ـــ أنت دوما تريدين ان تقولي ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ أنا ؟

ـ نعم أنت .. ولكن دعينا الآن من كل هذا .. انني جائع .. هيا احضري لي العشاء .. أين « ستويكو » ؟

ـ ستويكو ؟..

ـ نعم .. ابنك ستويكو .. هل نام ؟

هزت زوجة يورتالان كتفيها ، وقالت :

ـ كلا .. لم ينم .. لقد ذهب للقاء حبيبته .. ابنة كازالباش.!

ـ ابنة كازالباش في هذا الوقت المتأخر من الليل ؟

ـ نعم .. في هذا الوقت المتأخر من الليل .. أليس هو ابنك ..؟ أما كنت تأتي لمقابلتي في الليل ؟ .. ثم ألا يقولون ان الليل هو الحب ..؟

ـ حسنا .. حسنا .. سيكون لي غدا حساب معه .. اذا لم يستيقظ باكرا .. بسبب هذا الحب .. لكن « يورتالان » مالبث ان ابتسم وقال لزوجته .. على كل حال فان هذا يعني انني سوف أزوجه .. وأجلب لك كنة تساعدك ..

ـ تساعدني أنا ؟ .. لماذا ؟ .. هل أصبحت عاجزة ..؟ اذا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حصل وتزوجها فانها ستخدمه وتخدم نفسها .. أنا لست امرأة عجوزاً كما تحب أن توهمني دائما ..

ـــ حسناً .. حسناً .. أنت صبية ماشاء الله .. وجميلة ايضا اكثر من كنتك ابنة « كاز الباش » ..

ـــ الحق يقال ان «سيفدا» ابنة كازالباشيف وزوجته كازالباشيفا جميلة جدا .. وقد أحسن ابنك ستويكو الانتقاء .. لكنها فقيرة ..

ـــ فقيرة .. نعم فقيرة .. وهذا مؤسف .. ولكنها جميلة .. وابني أحسن الانتقاء ..

قال يورتالان ، ذلك ، وفتل شاربيه باعتداد .. ثم تقدم نحو المائدة ..

كان « ستويكو » قد ربط الثورين في الزاوية العريضة خلف البيت .. ووضع أمامهما العلف .. ثم ربت عليهما بكفه .. واقترب من البقرة ليداعبها بقوله : اطمئني هذه حزمة كبيرة من أجلك .. ثم قبل العجل من جبهته ، وقال في سره لم يبق علي سوى ان أسرع .. ان سيفدا ، تنتظرني منذ وقت ليس بالقليل ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تحرك « ستويكو » في الظل الكثيف تحت شجرة الاجاص، قرب البئر، وانتظر قليلا، ليتبين ماحوله، وأدرك ان أباه لم ينه حديثه مع الارملة « دوبرا » .. وبناتها .. وقدر انهم اذا ماكانوا يتناولون طعام العشاء عندهم في البيت، أي أمام المطبخ، فانهم لن يروه، اذا ما مر امام الباب متوجها نحو الحارة الجنوبية، أما اذا كانت دوبرا قد أخذت الطعام، وذهبت مع بناتها الى بيتها، فليست هنالك من مشكلة، اذ أن أباه يكون قد دخل الى المطبخ ليأكل مع أمه، لكن ستويكو عندما اقترب اكثر من السياج، تأكد من أن الارملة وبناتها لم يذهبن بعد، كما وأنهن لايأكلن، بل يتناقشن مع أبيه حول مسألة قدر انها تتعلق بالأجرة، فما كان منه إلا ان خطا بحذر، وقد أحنى ظهره، ثم أسرع قليلا، وما أن قطع (منطقة الخطر) وتأكد من أن أحدا لم يره، حتى تنفس الصعداء، وتابع طريقه مسرعا .. باتجاه بيت سيفدا ..

كانت القرية نائمة ومتعبة من العمل والحر، ولم يكن يسمع في ذلك السكون العميق سوى صوت صرير عربة بعيدة يبدو أنها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت قد تأخرت في العودة الى القرية .. وقدر « ستويكو » وهو يفكر بالوقت ان حبيبته ــ سيفدا ــ تنتظره على أحر من الجمر، لكنه ارتبك كثيرا، عندما قال في سره: ربما تكون قد يئست من ذهابي إليها ونامت، فمن ذا الذي يمكن أن ينتظر الى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟.. واستبد بستويكو قلق وشوق لايوصفان ..

أما « سيفدا » فقد كانت جالسة قرب البئر في آخر حديقة دارهم الواسعة. تنتظر وصول « ستويكو » بينما كانت تجول في رأسها خواطر مزعجة، وتعتلج في صدرها شكوك معذبة، ولما سمعت وقع خطوات بالقرب منها، انتفضت في مكانها وقد ظنت أن حبيبها قد وصل، بيد أنها مالبثت ان سمعت صوت أمها وهي تقول لها :

ــ سيفدا .. ياحبيبتي .. هيا نامي .. انك متعبة ..

ــ لست متعبة ياأماه ..

كانت « كازالباشيفا » تعرف أن ابنتها جالسة قرب البئر تنتظر وصول ستويكو .. وكانت تتذكر صباها اذ كانت هي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأخرى تنتظر ذلك حتى وقت متأخر من الليل.. فتسمرت وقالت لسيفدا :

ـــ من يدري يااابنتي .. قد يكون متعباً !!

في تلك اللحظة كان « ستويكو »، قد وصل الى سياج بيت سيفدا.. لكنه كان يسير بحذر شديد.. وعندما توقف وتأكد من أن أحدا لايراقبه.. قفز بسرعة.. وحط قرب حبيبته.. وأخذ كفها بين كفيه مصافحاً.. وطبع قبلة طويلة على فمها.. فاشتعلت الدماء في شراييه.. ولما رفع فمه عن فمها.. ظلت شفتاه مفتوحتين من النشوة.. والتمع في عينيه بريق كانت تتأمله « سيفدا » بلذة.. ثم قالت :

ـــ ستويكو..

ـــ سيفدا..

وتبادل الحبيبان قبلات كثيرة، بينما كان شغف أحدهما بالاخر يزداد بصورة عجيبة قبلة إثر قبلة..

ـــ لماذا تأخرت الى هذا الوقت..؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ كنا نقطف الذرة في الحقل البعيد.. آه لو تعرفين كم أسرعت حتى وصلت الى هنا..

ـ وآه لو تعرف كم كنت قلقة عليك..

ـ ولمَ القلق.. ألا تعرفين انني سآتي حتما ولو بعد منتصف الليل..

ومد « ستويكو » يده الى صدرها، وأدركت « سيفدا ».. آنذاك فقط أنه لايكذب عليها، أما عندما ضمها الى صدره فقد نسيت كل ماكانت تقوله أو تفكر به.. بينما كانت النجوم تواصل تلألؤها في السماء كما لو أنها في عرس رائع.. اذ كانت الليلة من ليالي الحب والصيف الساحرة التي يمكن ان يتمتع بها حبيبان في قرية نام أهلها من التعب والحر، حتى الثمالة..

أما « كازالباشكا ».. وهذا هو لقب السيدة العجوز أم سيفدا ـ فقد كانت مستيقظة هي الاخرى.. اذ أنها بعد أن اطمأنت الى وصول ستويكو عادت الى غرفتها.. ولكنها ظلت تدور في غرفتها.. تلهي نفسها بترتيب الفراش، أو إعادة غسل فنجان القهوة.. أو مسح العتبة من جديد.. لكنها كانت تطل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من النافذة بين الفينة والاخرى .. لتحس بمشاعر سعيدة تضطرم في نفسها .. وهي الام التي تحب ابنتها .. وتعرف مدى سعادة «سيفدا» بحبيبها ستويكو .. وتغبط نفسها لأن ابنتها الجميلة والذكية قد انتقت لنفسها أجمل وأغنى شاب في القرية .. وهذا نادرا ماتفوز به صبية فقيرة مثل سيفدا .. وقالت: « كازالباشكا » لنفسها : انه ليس جميلا وغنيا فقط بل هو شاب محب للعمل .. وليس لابيه — أي ليورتالان — غير صبيين وبنت .. وبامكانه أن يرتب لهم حياة رغيدة .. فقد بنى لصهره بيتا ، واشترى له دكانا ، وان كل مابقي لديه ، وهو كثير ، وكثير جدا ، هو لابنيه « ستويكو » و« اليكسي .. » .. واضافت كازالباشكا قائلة لنفسها : المهم ان يتم كل شيء على مايرام .. وابتسمت واقتربت من النافذة لتحدق من جديد باتجاه البئر .. وهي تفكر بمدى السعادة الغامرة التي تشعر بها ابنتها سيفدا بقرب الحبيب .. لكن افكارا سوداء مالبثت ان دارت في ذهنها للحظة .. وكانت تتلخص في خوفها من أن يكون .. « ستويكو » ودون أن تدري ، من ذلك النوع من الشباب الذين يتعرفون الى الفتيات ، ويستمتعون معهن ثم ينسحبون .. ويظل العار لاصقا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بسمعة الصبايا .. وتذكرت « كازالباشكا » فورا ان كل أهل القرية أنما يعرفون جيدا ان « ستويكو » يحب ابنتها .. بيد انها عادت لتطمئن نفسها بان « ستويكو » شاب ليس كالآخرين ..

ولكن ؟ .. هل سيتجاوب أبوه « يورتالان » معه عندما سيعرض عليه رغبته في الزواج من سيفدا .

فجأة .. استيقظ كازالباشيف ـــ زوج كازالباشكا ـــ من نومه .. ليسأل زوجته :

ـــ أراك لاتنامين ؟

ـــ نم أنت .. ماذا تريد مني ؟ .

ـــ هل ذهب أم لا ؟ ..

ـــ كلا .. انهما قرب البئر ..

ـــ اسمعي ياامرأة .. أنا شخصيا لايمكن ان استمر في السكوت عما يحصل .. أنا لايعجبني هذا ..

ـــ اسكت .. اسكت .. الافضل لك أن تنام .. هذا ليس شغلك ..

ـــ اقول لك ان مايحدث لايعجبني أبدا .. هيا اخرجي واطرديه ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـــ اطرده .. ؟ ولماذا يارجل ؟ .. هل أنت مجنون ؟ .. أطرده لانه يحب ابنتنا ..

ـــ اسمعي ياامرأة .. يجب ألا ننسى ان هذا الولد هو ابن يورتالان .. وأنت لاتعرفين أباه مثلما أعرفه أنا ..

ـــ أعرفه .. أعرفه .. لكنه ليس هو الذي سيتزوج ابنتنا ..

ـــ حسنا .. أريد أن اسألك .. لماذا لم يزوج يورتالان ابنته لشاب من القرية رغم ان الكثيرين قد أحبوها .. وفضل أن يزوجها لرجل من قرية « اينوفو » ؟

ـــ وما علاقة هذا بموضوع ابنتنا ؟ ..

ـــ أريد أن أقول ..

ـــ أنت لاتعرف أن تقول شيئا .. هيا .. نم .. نم .. وتأكد أن « ستويكو » سيكون صهرك المحبب .. وانه سيجبر أهله ان رفضوا على احترامنا ومحبتنا .. ماذا تريد اكثر .. البارحة رأتني زوجة «يورتالان » في الكرم . وسألتني عنك .. وطلبت مني ان ابلغك سلامها وسلام زوجها .. المهم الان ـــ ودائما ـــ هو ألا تتصرف تصرفات حمقاء ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـــ الخلاصة .. عقلك لايعجبني ..
ـــ اسكت .. اسكت .. أفضل لك ..

وتقدمت « كازالباشكا » من سرير زوجها، وشدت اللحاف الى فوق رأسه، فما كان منه إلا ان سكت ونام من جديد .

عاودت « كازالباشكا » .. تحركها في الغرفة .. وهي حائرة فيما يمكن ان تفعله من أجل أن تسلم على ستويكو .. اذ كانت قد بدأت تشعر نحوه بحب حقيقي .. وكانت تبرر ذلك لنفسها بقولها : ولم لا ؟ .. أليس ستويكو صهري ؟ .. ان الصهر كالابن .. وعندما تأكدت من نوم زوجها اذ سمعت شخيره، خرجت الى الحديقة، وتقدمت بضع خطوات نحو البئر .. ثم سعلت .. واقتربت .. وما كان منها إلا رفعت صوتها قائلة :
ـــ سيفدا .. سيفدا .. أما تزالين هنا ؟

انتفض « ستويكو » مذعورا، لكن حبيبته لفت ساعدها على عنقه، ووشوشته قائلة :

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـــ أمي تعلم أنك هنا .. وهي تحبك .. ربما جاءت لتسلم عليك .. وابتدرت « كازالباشكا » حبيب ابنتها بالتحية :

ـــ مساء الخير ياابني .. كيف حالك ياستويكو ؟ .. وكيف هو حال ابيك وأمك ؟.. أهلا وسهلا ..

أجابها ستويكو بصوت منخفض :

ـــ شكرا ياخالتي .. شكرا .. انهم بخير

ـــ وكيف هو حال أخيك الصغير ؟.. يكبر .. أليس كذلك ..؟ وأختك هل أنجبت ولدا ؟.. قبل أيام قالت لي أمك انها ستصبح جدة .. هل أصبحت أم لا ؟..

ـــ لم يحدث بعد .. ياخالتي ..

والتفتت « كازالباشكا » الى ابنتها وقالت :

ـــ وانت ياسيفدا كيف تستقبلين ضيفا غاليا مثل ستويكو هنا قرب البئر .. هيا اصطحبيه الى غرفة الضيوف .. هيا .. ولاتنسي ان تشعلي المصباح .. علبة الكبريت على الشباك ..

ـــ أعرف ياأمى أعرف .. قالت سيفدا ذلك .. ثم التفتت الى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ستويكو .. وقالت له .. هيا ياستويكو الى الغرفة، أما قلت لك ان أمي تحبك، فها هي ذي تريد أن تكرمك .. هيا ..

نهض « ستويكو » مترددا، بيد أن سيفدا سحبته من يده الى غرفة الضيوف، ولما دخلاها، اشعلت المصباح، وأغلقت النوافذ، فتلفت « ستويكو » يمعن النظر في جدران الغرفة المكسوة بالصور الموّطرة بأخشاب رصف عليها المحار، فقالت له سيفدا انها من صنع اخيها الكبير .. ثم رأى لوحة تمثل مشهدا من الحرب البلقانية .. وأعلمته « سيفدا » ان أباها يحب تلك الصورة كثيرا، لان ابن عم له كان قد اشترك في تلك الحرب ولما جلس « ستويكو » على الاريكة القديمة شعر بسعادة غامرة، رغم رائحة (النفتلين) التي كانت تملأ الغرفة .. فانتبهت سيفدا الى ذلك وقالت له :

ــ لاشك في ان رائحة النفتلين قد أزعجتك .. هنا في هذه الغرفة تحفظ أمي كل ثيابنا الجديدة التي ترشها بالنفتلين . ما العمل ..؟

ــ أنا سعيد ياسيفدا مادمت معي في غرفة واحدة ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أسدلت « سيفدا » التي كانت قد أغلقت النوافذ الستائر المطرزة، فابدى « ستويكو » اعجابه بالستائر، وتذكرت « سيفدا » .. كيف ان أباها كان قد رفض ان يشتريها، وكيف أن أمها قد باعت دون أن تعلمه قليلا من الصوف والسمن لتؤمن تكاليف تلك الستائر .. أما «ستويكو» فاستغرب كيف أن أهله، وهم الاغنياء، لم يشتروا لغرفة ضيوفهم مثل تلك الستائر الجميلة، وتذكرت «سيفدا» المخدات المطرزة هي الاخرى والمطبقة بعضها فوق بعض في الخزانة، فاخرجتها ووضعتها في زاوية الغرفة، ثم أخذت ستويكو من يده وأجلسته في ذلك المكان المريح، وانحنت عليه، وطبعت قبلة طويلة على جبهته، فتأملها بشوق عارم، وشدها لتجلس بالقرب منه .. وهو يقول :

Telegram:@mbooks90

ـــ هذا ماكنت أحلم به ..

ـــ وأهلك هل هم موافقون ؟

ـــ ولم لا ؟.. انهم سيخطبون لي الفتاة التي أرغب ..

ـــ ياليت الامر بهذه البساطة ..

ـــ هكذا هو ياسيفدا ..

وتبادل الحبيبان قبلات كانت تزداد حرارة واحدة تلو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاخرى الى أن سمعا فجأة صوت سعال أم « سيفدا »: قرب باب الغرفة .. فما كان من ستويكو إلا أن نهض قائلا :

ـــ يجب ان أذهب ..

ـــ مازال الوقت مبكرا ..

ـــ لا .. لا .. ليس مبكرا ..

ـــ أجل انه مبكر .. وستبقى هنا ..

وأجلست « سيفدا » من جديد حبيبها « ستويكو » في الزاوية بين المخدات المطرزة ، وجلست قربه تتأمله بلهفة ..

سعلت أم « سيفدا » مرة ثانية امام باب الغرفة ، ثم نادت ابنتها قائلة : سيفدا .. تعالي ..

نهضت « سيفدا » مسرعة نحو أمها .. ثم عادت تحمل صينية من النحاس ووضعتها على الأرض أمام ستويكو الذي تبين فيها صحنا من البيض المقلي وآخر من اللحم المقدد وثالث من مخلل الملفوف بالاضافة الى الخبز والبصل الاخضر ورائب اللبن .. وماهي إلا لحظات حتى دخلت « كازالباشكا » الى الغرفة مبتسمة وقالت لستويكو :

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـــ قلت في نفسي.. لعله قد أتى من العمل مباشرة.. فاعددت لك هذه الاشياء البسيطة..

ـــ عفوا ياخالتي.. لماذا اتعبت نفسك..؟

ـــ اتعبت نفسي ؟.. وماذا فعلت كي اتعب نفسي ؟.. تفضل ياابني... تفضل.. لاتخجلني.. هذا مااستطعته.

تقدم « ستويكو » نحو المائدة وكان جائعا حقا، فتأملته أم سيفدا وهو يأكل بشهية، ورددت بعض عبارات الترحيب والتشجيع، ثم انسلت من الغرفة لتترك سيفدا، وستويكو وحدهما.. فما كان من سيفدا إلا ان قالت لحبيبها:

ـــ غدا.. في الليل.. أنا التي ستعد لك المائدة..

ـــ ماذا ستعدين لي ؟..

ـــ تعال.. وسترى..

ـــ سوف آتي..

ـــ حاول ان تأتي مبكرا قليلا..

ـــ سأحاول..

وهكذا تأخر « ستويكو » في تلك الليلة عن العودة الى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بيته .. ودون أن يعرف كم هي الساعة .. بل انه كان لايريد ان يعرف ذلك ..

كان « يورتالان » من ذلك النوع من الرجال الذين لايؤجلون عمل اليوم الى الغد، وكان في المواسم لايكف عن التجول في حقوله، وهو يراقب سير العمل فيها، ويرسم الخطط من أجل انجاز المهام في مواعيدها لتأمين أفضل المحاصيل وأوفرها وأكثرها مردودا، وحتى اذا ماحدث ان شعر بتوعك في صحته، فانه كان يتحامل على نفسه، ويتابع اهتماماته بدأبه المعهود، فلا يشكو ولايأوي الى الفراش .. وعندما كانت تقول له زوجته :

ـــ استرح .. يارجل .. استرح قليلا .. كان يرد عليها قائلاً :

ـــ هنالك وقت للراحة .. ووقت راحتي أنا هو القبر ..

كان « يورتالان » ينهض مبكرا جدا، قبل دجاجاته نفسها، ليرقب بزوغ الفجر، ويتأكد من الطقس، واذا ما أحس بانه سيء، ولايساعد على العمل، فانه كان يشتم كل شيء يصادفه بصوت منخفض، حتى لاتسمعه السماء، وتصب جام

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غضبها على زرعه.. اذ كان يؤمن بأن التأفف حرام.. وان على الانسان ان يتحلى بالصبر.. ويتقبل الامور على علاتها بصدر رحب..

كان « يورتالان » عندما يستيقظ مبكرا يدخن اربع أو خمس سيكارات في مدى نصف ساعة، ثم يبدأ بالسعال الحاد والعميق الذي ما ان كانت تسمعه جارته التي كان قد ابتلاها الله بزوج كسول، حتى كانت تصرخ في زوجها:

ـ هيا.. انهض.. هيا.. أما سمعت صوت سعال « يورتالان »..؟ ليس من حقك بعد الان ان تشكو من الفقر.. ان كسلك هذا هو السبب.. ان « يورتالان »، أكبر منك بعشرين سنة وهو بهذا النشاط.. ألا تخجل من نفسك..

كان « يورتالان » مثالا للريفي الدؤوب الذي لايعرف من الحياة سوى حب عمله وارضه.. كما كان يكره الكسل والكسالى.. ويهزأ بهم.. فهو الذي كان يوقظ زوجته مع بزوغ الفجر قائلا:

ـ هيا.. هيا انهضي.. أما كفاك كل هذا الشخير ؟..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعندما كانت المسكينة تسمعه كانت تهب بسرعة، لانها تعرف جيدا انها ان لم تفعل، فانه سيغضب كثيراً، ولم يكن يورتالان ليتحرك من أمامها الا عندما يتأكد من استيقاظها، ثم يتوجه بعد ذلك ليوقظ ابنه « ستويكو » ثم الاجير.. ولكنه في ذلك اليوم لم يفعل ذلك، بل توجه الى الغرفة التي ينام فيها ابنه.. وسعل مرة.. ومرتين.. وثلاث مرات.. ثم قال:

ـــ هيا انهض ياولد..

كان الولد ـــ أي ستويكو ـــ يغط في نوم عميق ولذيذ، اذ أن تأخره في بيت حبيبته « سيفدا » كان قد أسعده وأتعبه في آن واحد.. لذا، فانه كان يتخيل نفسه، وهو تحت اللحاف انه لايزال في تلك الغرفة ذات الستائر الجميلة التي تفوح منها رائحة « النفتلين ».. ويحلم بوجه حبيبته الرائع، ويتصور كفيها على خديه، ويتذكر وهو بين النوم واليقظة لذة القبلات الطويلة التي فاز بها في تلك السهرة الرائعة.. لذا لم يكن ليسمع سعال أبيه.. ولاصوته الغاضب وهو يردد عبارة: انهض ياولد.. وعندما طال بيورتالان الانتظار، مد قدمه، وركل ستويكو، وكرر بصوته

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأجش للمرة الثالثة: هيا انهض ياولد... وفتح « ستويكو » عينيه، ليرى وجه أبيه المتجهم، بيد ان النوم مالبث ان شده من جديد الى دفء فراشه، فغطى وجهه باللحاف، فلم يتمالك الاب نفسه فانحنى ليرفع اللحاف عن ابنه بسرعة، وهو يقول: كفاك نوما أيها الأرعن.. أقول لك انهض.. ليس من شاب.. ويستحي من نفسه.. يمكن أن ينام حتى هذا الوقت.. ان اشغالنا كثيرة.. قم وانجزها.. ثم نم كما تريد..

نهض ستويكو من فراشه صامتا، واتجه صوب البئر، بينما كان والده يلاحقه بكلمات التأنيب الجارحة:

ـــ هل سمعت ؟

ـــ سمعت..!!

ـــ اليوم ستذهب لمساعدة الاجير « ديمتر ».. ولكن اياك ان تضيع الوقت معه بالثرثرة.. يجب ان تشتغلا.. هل فهمت ؟..

ـــ فهمت..!!

اكتفى يورتالان بهذا القدر من توبيخ ابنه ستويكو.. ثم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مضى يتفقد ما في أطراف باحة داره الواسعة من أرزاق ومحاصيل، الى أن توقف أمام أغمار القمح اليابسة المكدسة بعضها فوق بعض الى علو يقارب السطح.. وهز رأسه متألما.. اذ كان يخشى عليها التلف، وعاد لينادي ابنه قائلا:

ـ تعال الى هنا..

اسرع «ستويكو» ووقف أمام والده صامتا بانتظار الاوامر، فسأله يورتالان:

ـ متى سندرس هذه الحنطة؟

ـ الدرّاسة مشغولة.. والدرّاسة بالدور.. ورقمنا ١٢٦..

ـ ما العمل اذن؟

ـ ليس من طريقة يا أبي..

هز يورتالان رأسه بتؤدة وقال:

ـ بل هنالك طريقة.. هي أن نشتري نحن دراسة..

ـ ولم لا أيها الصبي؟.. يجب ان نفكر.. يجب أن نتدبر أمرنا..واذا وجدنا أن باستطاعتنا أن نفعل ذلك..فلم التقصير؟

قال يورتالان ذلك، ثم ترك ابنه عند أغمار السنابل،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومضى باتجاه الاصطبل، وهو يفكر بامكانية شراء دراسة خاصة به، وقال في سره، ان ثمنها نصف مليون ليفا.. هذا مبلغ ليس بالقليل على كل حال.. ولكن ليس المبلغ هو المشكلة.. سوف آخذ قرضا صغيرا من البنك.. انما المشكلة فيمن يمكن ان يشتغل عليها، ويتحمل مسؤوليتها.

كان يورتالان يخاف من هذه المسألة بل كان بطبعه لايحب الالات المعقدة.. كان يطلق عليها اسم « أعمال شيطانية ».. وكان يورتالان لايحب الميكانيكيين أيضا، وقد تعود ان يلقبهم باللصوص والملاعين والابالسة.. والا يثق بهم أبدا.. وان ينظر اليهم كأناس من عالم آخر غير عالم الريف الذي عرفه من الصغر.. فقال في سره: ان بامكانهم ان يخدعوني دائما.. وكان سبب اعتقاده هذا انه كان قد رأى ميكانيكيين اكثر من مرة، وهم تحت الالات يفحصونها، ثم ينهضون ليقولوا لاصحابها اشياء غير مفهومة.. صحيح انهم كانوا يتكلمون بالبلغارية، لكنه ليس من أحد في القرية يستطيع أن يحزر مايقولونه..

وكان من عادة يورتالان عندما كانت تخطر في رأسه فكرة ما ان يقلبها على كافة الأوجه، وقد خطر له بالنسبة لموضوع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« الدرّاسة » ان يرسل ابنه « ستويكو » الى ورشة ما في المدينة كي يتعلم الميكانيك قليلا ، كي يستطيع في حالة شرائه للدرّاسة ان يعتمد عليه الى حد ما .. صحيح انه قد يضطر احيانا الى استدعاء الميكانيكيين في حالة توقف الدراسة عن العمل كليا ، لكن ابنه سيفهم على الأقل مايقولونه ، وسيكتشف غشهم .. لكن يورتالان مالبث ان استبعد هذه الفكرة من رأسه ، وذلك عندما تذكر ان ستويكو يشبهه الى حد بعيد في عدم تلاؤمه مع الالات ، وقال يورتالان لنفسه : انه لايصلح .. ثم كرر هذه العبارة اكثر من مرة .. الى ان قفزت الى رأسه من جديد فكرة اخرى .. ألا وهي ارسال ابنه الصغير «اليكسي» .. الى معهد من معاهد الميكانيك ، ليدرس تفاصيل الالات وجزئياتها ، فيعود مهندسا أو شبه مهندس ، فيستطيع الاعتماد عليه تماما في كل مايخص الدرّاسة التي يجب ان يشتريها .. وهز يورتالان رأسه راضيا وقال : هذا أمر ممكن .. لكننا يجب أن ننتظر قليلا .. صحيح أن الولد فهيم ، لكنه لايزال صغيرا ..

منذ ذلك اليوم بدأت فكرة شراء «الدرّاسة» تشغل يورتالان بصورة دائمة وتستولي على كل اهتمامه ، فتارة كان يتصور

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نفسه وقد ملكها، وتارة اخرى يحسب كم في امكانه ان يربح منها ان هو استغلها في انجاز أعمال الاخرين، ليشعر في كل الحالات بنشوة عارمة، وكان يلذ له بصورة خاصة ان يفكر بكل ذلك في أوقات الصباح الباكر، عندما كان يقوم بجولته اليومية المعتادة في صحن داره الواسعة، وعندما كانت القرية تستيقظ من النوم، وينصت «يورتالان» الى ضجة الحياة من حوله اذ تختلط أصوات الرجال بصرير العربات وثغاء النعاج وصياح الديكة، كان يزداد نشاطاً وتفاؤلاً، فيتبادل الحديث مع زوجته، التي كانت كثيرا ماتنتهره قائلة:

ـــ ألا تمل الكلام.. ؟ اريد ان التفت الى أعمالي.. هيا اخرج..

ـــ والى أين تريدينني ان اخرج..؟

ـــ لقد سأل عنك «ستويكو»..

ـــ ستويكو ؟.. وهل اصبحت أنا تحت أمر ستويكو ليسأل عني ؟..

ـــ لاتبدأ بمهاجمته.. ليس بين شباب القرية شاب في مثل سنه.. وفي مثل اخلاقه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ وهل يستطيع ان يكون إلا كذلك ؟

في احدى المرات وبينما كان الزوجان يتبادلان مثل هذه الاحاديث الصباحية، دخل الى دارهم الفلاح «ديلتشو» ابن عازف القرية «آدم سرتلييف».. وألقى التحية.. فسأله يورتالان بلهجة لاتخلو من مداعبة :

ـ ما الذي اتى بك الينا في هذا الصباح الجميل ؟

ـ عندي رجاء ياعم يورتالان.. رجاء بسيط..

ـ وما هو ؟

ـ ان تعطيني ألف ليفا..

ـ ألف ليفا ؟.. ماذا تقول ؟.

ـ نعم ياعم يورتالان.. البارحة في المساء.. نطح الثور ابني الصغير «كوليو» في صدره، فنادينا «ديمو» لمعالجته، فقال لي لابد من أن آخذه الى الطبيب في « بلوفديف » فماذا يمكنني ان أفعل ؟..

ـ ألف ليفا في هذه الآزمة ؟.. هل أنا بنك ؟

ـ أنا أعلم أنك لست بنكا.. ولكن باستطاعتك ان تعطيني هذا المبلغ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـــ لماذا لاتأخذه من الجمعية التعاونية ؟

ـــ ابني يموت ياعم يورتالان .. وتحدثني أنت عن الجمعية التعاونية ؟.. وأنت تعلم حق العلم أنها لن تؤمن لي مثل هذا المبلغ ؟

امتعض يورتالان كثيرا ، ولوى شفته ، وقال لديلتشو :

ـــ اسمع ياديلتشو .. كنت قد أودعت عند زوجتي مبلغا من المال .. دعني ادخل لاسألها عما اذا كانت قد تصرفت به أم لا ..

اتجه يورتالان الى الغرفة ، بينما جلس « ديلتشو » على كرسي صغير يتأمل مشيته وظهره المحدوب ، ويقول في سره : أنت ليس معك ؟.. اذا كنت انت لاتملك ألف ليفا .. فمن الذي يملك مثل هذا المبلغ ؟.. الجمعية التعاونية التي اسستموها لتخديرنا ياأغنياء القرية ؟ .

تأخر «يورتالان» كثيراً ، أو ربما كان «ديلتشو» هو الذي شعر هذا الشعور ، ذلك لان المسكين كان على أحر من الجمر ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فانهم قد نقلوا ابنه المصاب « كوليو » الى مركز الناحية .. وكان عليه أن يأخذ الدراهم ويلحق بهم ..

ـــ هذه هي الالف ليفا التي طلبتها ... ولكن اسمع يا «ديلتشو» .. يجب ان تعيدها حال عودتك من البلدة ..

ـــ طبعاً .. طبعاً ..

ـــ اسمع .. ستكون عندي «درّاسة» قريبا وستساعدني أليس كذلك ؟..

ـــ طبعا .. طبعا .. ودس الفلاح المسكين المبلغ في جيبه واطلق ساقيه للريح ليلحق بابنه المصاب .

كانت الشمس قد بدأت تسلط أشعتها القوية على القرية .. وكانت كلما صعدت اكثر باتجاه قبة السماء الزرقاء .. كان قاطفو الذرة يزدادون شعورا بحرارتها .. ويحسون كما لو ان الارض تحت أقدامهم انما تشكو مزيدا من الحاجة الى المطر أو الرطوبة .. فيتأملونها بتفهم وحنان .. ثم يرسلون أبصارهم الى جبال الرودوبي البعيدة والبنفسجية كما لو انهم يتوسلون اليها بأن تبعث اليهم بقليل من الغيوم التي تتلفع بها .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أما يورتالان فانه كان لايزال في طريقه الى الحقل، وكان كلما شاهد عربة محملة بعرانيس الذرة عائدة الى القرية يلوح بيده ويحيي أصحابها قائلا :

ـــ اتمنى لكم التوفيق ..

أما اذا كان صاحب العربة من المقربين الى قلبه، فكان يستوقفها ليسأله :

ـــ كيف هو المحصول ؟

وعندما وصل «يورتالان» الى منطقة حقول الذرة، كان العرق يتصبب من جسمه، فأوى الى جدار قرب نبع اسمه «أمين آغا».. ولف سيجارة من تبغ علبته القديمة.. وتلفت حوله ليسمع نقيق ضفدعة تقفز في وحل النبع الفائض. ثم فكر بقصة تسمية ذلك النبع باسم نبع أمين، ولم يكن (أمين) هذا سوى تركي رحل عن المنطقة اثناء الحرب الصربية ـــ البلغارية عام ١٨٨٥.. مخلفا اسمه الذي اطلق على النبع.. ذلك لانه هو الذي كان قد حفره واعتنى به زمنا، وسوره بأحجار يتجمع الماء خلفها، بيد أن مختارا جاهلا أزاح تلك السور أثناء الحرب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاوروبية .. ولم يهتم بالنبع منذ ذلك الحين أحد .. الى ان غاض وتحول الى مستنقع صغير تنق فيه الضفادع .. وعندما استبد بيورتالان العطش، حاول أن يشرب قليلا من الماء، فتقززت نفسه ولم يستطع .. اذ كان الماء راكدا وملوثا .. فما كان منه إلا أن أرسل شتيمة بذيئة .. ونهض ليسير باتجاه حقله ..

عندما وصل يورتالان الى الحقل، وقف يتأمل العرانيس الكبيرة، وشعر بنشوة عارمة، فأخرج منديله من جيبه ليمسح به عرقه، وهو يقدر ان محصوله سيكون اكثر من خمسة آلاف كيلو غرام من الذرة، وان كدسة من الليفات، قد تتجاوز الثلاثين الفا، سوف تضاف الى كنزه من الأوراق النقدية، واتخذ قرارا فوريا بألا يبيع المحصول إلا عندما ترتفع أسعاره، وعاد يورتالان ليتوغل في الحقل، وهو يزيح العرانيس العالية بيديه معتزا ومداعبا بقوله :

ــ دعيني أمر .. لاتكوني غليظة الى هذا الحد ..

تذكر يورتالان فجأة كيف كان قد اشترى ذلك الحقل عندما عاد من الحرب، حيث كان قد قضى ثلاث سنوات شاقة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فعلا ، لم يصدق خلالها انه سينجو بنفسه ، لكنه ما أن عاد حتى بدأوا يتحدثون معه في القرية عن ضرورة تفكيره بالاستقرار وعن شراء قطعة من الارض ، والبحث عن زوجة ، وحدث ان كان في زيارة لدار القس « بوب تودوروف » ، وكان هنالك ابن القس الذي كان قد قرر بيع أرضه والرحيل الى المدينة ، فما كان من يورتالان إلا ان دفع له عشرين ألف ليفا وأخذ الارض ، رغم انها كانت مهجورة ، فقد كانت عائلة القس تودوروف لاتعتني بأرضها ، فما كان من يورتالان إلا ان شمر عن ساعد الجد واستصلح الارض وسمدها وزرعها وهو يردد ، المثل القائل من يفلح يحصد .. ومد يورتالان يده الى جيبه ، وأخرج علبة دخانه ، ولف سيجارة واشعلها ، وهو يشعر بنشوة عارمة من منظر عرانيس الذرة الممتد الى بعيد بعيد .. ثم تلاحقت في رأسه ذكريات كثيرة وعزيزة .. وفكر بالحياة والايام .. بالحرب والسلم .. باصدقائه الكسالى الذين لم يستطيعوا ان يفعلوا شيئا ، وباصدقائه المجدين المحبين للعمل ، لكن يورتالان عندما تأكد أن محصوله رائع ، فرر ان يتوجه الى حقله الاخر الابعد ، وكان مزروعا بالذرة أيضا ، لكن ذلك الحقل الاخر لم يكن قد اشتراه بدراهمه ، بل ورثه مع أخيه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عن والدهما، فحث يورتالان السير باتجاهه، وماهي إلا نصف ساعة من الزمن حتى بلغه، وتوغل بين العرانيس يتفحصها ومر في منطقة لم تعجبه عرانيسها، اذ كانت أقل اكتنازاً بالحبوب، فقال بصوت ساخط: اللعنة عليك ياستويكو.. انك لم تحرث هذا المكان جيدا..

كان يورتالان عندما يتجول في حقوله، يشعر انه في بيته، فقد كان يحب تلك الاراضي التي اصبح جزءا منها لذا فقد كان يهتم بكل شيء فيها.. لكنه عندما مر بمحاذاة حقل « بيشين » الرائع و(بيشين) هذا أحد منافسيه في القرية قال بلهجة لاتخلو من حسد:

ــ بيشين.. أيها العفريت.. ستكون سعيدا بمحصولك..

وتابع « يورتالان » سيره، ثم توقف قرب حقل صغير آخر.. وفغر فمه دهشة أمام بعض العرانيس الكبيرة بشكل ملفت للنظر..وقال:

ــ هكذا يكون المحصول.. لكنه مالبث ان طمأن نفسه بقوله.. على كل حال فانني الاول بين أهل القرية بالنسبة لمحصول الذرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في هذا الموسم. صحيح انني قد لاحظت بعض العرانيس أكبر من عرانيسي قليلا.. لكن حقولي كثيفة.. ومساحاتها اكبر.. ان شاء «بيشين» أم أبى.

لم يكن مايدور في ذهن يورتالان بالشيء الغريب، ذلك لانه من عادة الفلاحين أن يراقبوا حقول بعضهم البعض.. وبينما هو يتلفت حوله، وقع نظره على عرنوس كبير الى درجة اثارت دهشته، فصاح قائلا:

ـــ هذا للشوي.. ثم عاد الى شجرة الاجاص ليستريح في ظلها، ويرى ما اذا كانت هنالك عليها إجاصات ناضجة.. بيد أنه لم يجد مايبل به حلقه.. كما وأنه ما أن جلس حتى سمع صوت خشخشة، فظن ان حيوانا ما يمر قربه، فنهض من جديد لكنه لم ير شيئا، لكنه سمع صوت عربة من بعيد.. فما كان منه إلا أن عاد الى مكانه، وهو يقول في سره: لاشك في أنه كلب.. فالكلاب وحدها تهرب دون ضجيج.. غير انه سمع صوت الخشخشة من جديد، فقرر ان يعرف السر، وأصاخ سمعه جيدا.. فأيقن ان مصدر الخشخشة من الخلف.. من صوب الغابة، فنهض مسرعا يدفعه فضول غريب لاكتشاف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سبب ذلك الصوت .. وخطر له ان لصا قد سرق العرانيس .. ثم دخل بين الاشجار .. وقد صدق ظنه فعلا ، فبينما هو يتجول بين الاشجار ، وقد التمعت عيناه الصغيرتان ببريق اليقظة والحذر .. لاحظ ان رأسا اشقر خلف الأغصان .. رأس صبي يافع لم يستطع ان يتبين وجهه .. فصاح يورتالان بأعلى صوته : قف أيها اللص ..

ما ان سمع اللص صوت يورتالان حتى اطلق ساقيه للريح ، فعرف العجوز طول قامته ، وتأكد انه سارق بالفعل ، اذ لاحظ على ظهره كيسا مليئا بالعرانيس . فتبعه مهرولا بكل ما أوتي من قوة .. وهو يكرر عبارة : قف أيها الوغد ..

لم يمتثل اللص لكلام يورتالان ، الذي كان قد قرر ان يلقي عليه القبض لينتقم لنفسه ، فقد تكون تلك العرانيس المسروقة من حقله ، وليبرهن لاهل القرية أن أحدا لايمكن ان يعتدي على حقله ، أو على أي حقل آخر ، أمامه .. وهذا ماكان يهم يورتالان كثيرا ..

زلقت قدم «يورتالان» وهو يطارد الصبي ، وآلمته كثيرا ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكنه نهض من جديد وقد حمل حجرا بيده، وعاود جريه دون أن يفكر بقدمه، بيد ان للسن حكمه، فليس من المعقول ان يلحق رجل في مثل سن يورتالان، ومدخن أيضا، بصبي يافع وخائف، لكن يورتالان المصمم على اللحاق به، مالبث ان استطاع الاقتراب منه، وأهوى بالحجر الذي في يده، وبكل قوة، باتجاه السارق، فأصابه في رقبته، وماهي إلا بضع خطوات حتى سقط الصبي على الارض.. فبلغه يورتالان، وصاح به:

ـــ هيا انهض أيها اللص.. انهض لأريك.

كان الصبي يتلوى من الألم، وقد امتقع وجهه، وارتخت يداه.. فقال يورتالان في نفسه: ماذا حدث ؟.. هل يمكن ان يكون قد.. لكنه مالبث ان طمأن نفسه وقال في سره: مجرد اغماء، الآن سيفيق.. فركل الصبي بقدمه، وحاول ان يحركه، فاذا به جثة هامدة.

خاف يورتالان خوفا شديدا، لكنه حمل الصبي، وحاول ان يوقفه على قدميه قائلا:

ـــ هيا قف.. لماذا سرقت الذرة ؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكن الصبي الذي كان مثل خرقة بين يدي يورتالان .. عاد وسقط على الارض .. وكانت عيناه نصف مفتوحتين .. فسأل يورتالان نفسه : هل يمكن ان يموت الانسان بمثل هذه السرعة ؟.. فقال موجها كلامه للصبي :

ــ ايه أيها الفتى .. هيا استفق .. هل تسمع ؟.. اذا استفقت فانني أعدك بألا امسك بسوء .. ووعدي شرف ..

ولما يئس يورتالان من إيقاظ الصبي .. انحنى عليه .. وضربه على خديه ضربات وئيدة .. علّهُ يتنبه .. واكتشف وهو يقلب له رأسه بين يديه ان الحجر قد أصابه في أعلى رقبته من الخلف .. ورغم أنه لم يكن هنالك من دم كثير ، فان الصبي كان بلا حراك .. فما كان من يورتالان إلا ان رفع كفه ، وأهوى بها على وجه الفتى بقوة .. ليرى مايمكن أن يحدث .. فلاحظ وهو في أوج قلقه الفظيع .. أن الصبي قد فتح فمه قليلا .. ثم اطبقه .. وانتهى ..

ظن يورتالان انه يحلم حلماً ثقيلاً .. فقد سبق له ان رأى في حياته أحلاما مزعجة ، وكان في كل مرة عندما يستيقظ من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أحلامه يجد كل ماحوله على مايرام، غير انه اكتشف هذه المرة أن مايراه ويعاينه ليس كذلك.. إنما هو حقيقة.. فقد شحب وجه الصبي بسرعة، وبرد بؤبؤاه ليذكرا يورتالان بعيني سمكة ميتة.. حتى انف الصبي فقد دق واصبح رفيعا، فجثا يورتالان بالقرب منه، وتأمل وجهه ثم قميصه الملون حيث لاحظ زرا أزرق كبيرا عند ياقة قميصه.. فتذكر قميصا كان له عندما كان شابا صغيرا، وكان له مثل ذلك الزر الذي كان لجده، ثم اصبح لابيه الذي كان يقول له: انظر هذا الزر الذي عند رقبتي انه زر جدك.. وفجأة سأل يورتالان نفسه: ترى من هو أبو هذا الصبي ؟.. وما ان خطر له مثل هذا التساؤل حتى اضطرب اضطرابا شديدا، وعاد يتأمل وجه الضحية من جديد، عله يتعرف الى أبيه... لكنه لم يتذكر وجها مشابها له، فليس بين معارفه من له مثل ذلك الشعر الاشقر الكث، أو مثل ذلك الجبين الضيق، بيد انه عندما تأمل خدي الصبي البارزين تذكر انه قد رأى خدين مثلهما.. ولكن أين ؟.. لم يعرف.. ومن أين له ان يعرف.. وهو في مثل تلك الحالة من الذعر والقلق ؟..

وبينما يورتالان في تلك الحالة سمع صوت سيارة تقترب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منه .. فنهض، واختبأ خلف شجرة كي لايراه أحد، وتبين له ان السيارة هي شاحنة تحمل العرانيس من حقل بعيد الى القرية .. فقال في سره، وهو يرتعد من الخوف: سوف يروننني .. وانبطح على الارض، وكتم أنفاسه، وماهي إلا لحظات حتى مرت السيارة، دون ان يلحظ أحد من ركابها شيئا، وعندما تأكد يورتالان من ذلك، سأل نفسه: هل أنا في حلم مزعج ؟.. بيد انه ما ان تلفت حوله، وأرسل نظرة الى مكان الجثة، حتى أردف يقول: كلا .. كلا .. انني لست في حلم .. بل هي جريمة .. يا للهول .. غدا سوف أساق الى المحكمة ليبدأوا باستجوابي .. وقد أسجن عشرين عاما أو أكثر .. وقد أموت في السجن .. هذا مؤكد .. فأنا لم أعد صغيرا كي اقضي كل هذه المدة وأخرج .. ولكن هل يمكنني أن ارضي والد الفتى بالمال ؟.. اذا استطعت فسوف احكم بالحق العام .. ولكن ماذا يجب ان افعل الآن .. ؟ وفكر يورتالان، قليلا وتابع حديثه مع نفسه: الآن يجب ان أخفي الجثة بأي شكل من الاشكال .. وتحامل على نفسه، ونهض ليسير باتجاه الصبي القتيل، ووقف أمام جثته ليتأملها من جديد، ثم اشعل سيجارة ودخنها، وهو يفكر بأنسب مكان يخفي فيه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

آثار الجريمة، فقرر إبعاد الجثة قدر الامكان عن أرضه، فانحنى، وحمل الصبي الميت، وسار به لاهثا مسافة قدرها باكثر من مئة متر، ثم القى بالجثة امامه، وقال لنفسه: ما العمل الآن ؟.. هل أتركه وأعود الى البيت ؟.. سوف اصمت ولن يعرف أحد شيئا.. أجل سوف اتركه.. ثم تنفس يورتالان الصعداء، وأردف يقول: أية مصيبة حلت بي هذا اليوم ؟.. لكنني أنا هو السبب.. لماذا تركت نبع «أمين آغا» وأتيت الى هنا ؟ ولماذا كل هذا الحقد على هذا المخلوق المسكين ان كل ماسرقه هو عشرة عرانيس من الذرة.. اللعنة على العرانيس.. وعلى الذرة.. وعلى الحقل..

قرر يورتالان ان يغطي الجثة بقليل من الحجارة والحشائش وأن يتركها في مكانها، ويعود الى القرية، وقال لنفسه: غدا.. اذا أتوا للقطاف سيكتشفونها، واذا لم يأت احد.. فانهم سيكتشفونها فيما بعد من رائحتها.. ثم سيبدأ البحث والتفتيش والاسئلة.. وأهل الصبي.. وأهل الصبيان.. و.. و.. ولست أدري ماذا سيحصل ؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندما ذكر «يورتالان» كلمة صبيان.. توقف قليلا.. اذ خطر له ان هؤلاء قد يعرفون ان رفيقهم كان قريبا من حقل يورتالان.. فاذا قالوا هذا أمام المحققين.. فان التحقيق سيطاله حتما.. فقال لنفسه: ماذا فعلت أنا ؟.. واطرق قليلا ليتخذ قرارا حازما بضرورة اخفاء الجثة..

ولكن.. قال يورتالان محدثا نفسه، ماذا سيفعل أهل الصبي ؟.. انهم سينتظرون عودته يومين.. أو أكثر قليلا.. ثم سيبدأون بالسؤال عنه.. ولكن من سيسألون ؟.. سيسألون رفاقه.. وسيسألون الرعاة.. وسيسألون أقاربهم في القرى المجاورة.. وما بعد المجاورة.. وأمسك «يورتالان»، رأسه بين يديه وقال: ياإلهي ماذا فعلت ؟.. أية جريمة ارتكبت ؟.. وما هو ذنب هذا المسكين ؟.. غدا سينطلقون في الحقول وقد استبد بهم الجزع على ابنهم.. الحق معهم.. ماذا لو فقدت أنا ابني «ستويكو».. مثلا.. ألن أفجع به فجيعة أليمة ؟.. ألن أبكي ؟ ألن تموت أمه من البكاء ؟.. ودمعت عينا يورتالان من الخوف والألم معا.. لكنه مالبث ان انتبه الى نفسه ليخاطبها قائلا: ولكن لماذا كل هذا الخوف ؟.. انه قتيل واحد فقط.. في الحرب كنت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أرى حولي عشرات الجثث، ولاأخاف.. فماذا جرى لي الآن ؟.. هل السبب ان القتل في الحرب بلا مسؤولية ؟ وتذكر «يورتالان» معركة من معارك الحرب البلقانية التي خاضها بنفسه.. كان مع فرقة بلغارية ترابط قرب نهر «ماريتسا»،وفجأة رأوا فرقة تركية تتقدم باتجاههم، متحدرة من الهضبة، فما كان من القائد إلا ان صاح في جنوده قائلا: ان عددهم أكبر كما ترون.. ولكن مايتوجب علينا فعله هو الصمود.. سوف نقاوم.. وسوف نقتل منهم الكثيرين.. قبل ان نقتل.. ان وطنكم يطالبكم بالاستبسال.. وقد استبسل الجنود بالفعل، وصوبوا بنادقهم بعزيمة ودقة الى صدور المعتدين الأجانب، وأردوا من جنود العدو عشرات وعشرات القتلى.. وكان «يورتالان» نفسه عند حسن ظن قائده به.. فقد قتل اكثر من اربعة جنود من الاعداء.. وعندما انتهت المعركة تجول بين الجثث.. وتفحص وجوهها.. دون ان يفكر اطلاقا بذوي هؤلاء الرجال.. بآبائهم... أو بأمهاتهم.. فما الذي أصابه الآن ؟.. هذا السؤال ألح للحظة على خاطر يورتالان.. بيد انه مالبث ان صحح الأمور في رأسه.. وقال لنفسه: ان الموضوع هنا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مختلف .... صحيح ان هؤلاء كانوا أمواتا مثل هذا الصبي، غير انهم كانوا غزاة ومعتدين آثمين.. ولايمكن تشبيه هذا المسكين بهم.. هذه هي الحقيقة.. انه مجرد يافع.. ربما كان قد وعد اخوته الصغار بأن يعود اليهم بقليل من عرانيس الذرة، يشوونها في دارهم ويأكلونها معا... ربما كانوا محتاجين.. مسكينة أمه.. مسكينة.. وغدا عندما سيسألني أبوه أمن أجل بضع عرانيس من الذرة قتلت لي ولدي ؟.. كيف سأنظر الى وجهه ؟.. كيف..؟ وأجهش يورتالان بالبكاء كأنه طفل صغير.. وهو يسأل نفسه: كيف سأدافع عن نفسي أمام أهل القرية ؟ ماذا سأقول لهم ؟.. ولكن هل حقا أنا الذي قتلته ؟... أين اذن هو الدم ؟ هل يمكن ان يموت دون ان تسيل منه دماء غزيرة.. وأمسك يورتالان برأس الصبي من جديد وتفحصه، فلم يلاحظ غير بقعة زرقاء في مؤخرة رأسه من الخلف، وخدش صغير جدا تجمدت فوقه قطرة من الدم.. فاشتد ذعره، وقرر ان يسرع بعمل شيء ما قبل ان يخرج أهل الصبي للبحث عنه.. وتحرك يورتالان من مكانه ليفعل شيئا ما سريعا.. وخطا بضع خطوات ليدخل الى حقل ديتشكا فولكولوف.. حيث قرر ان يدفن الصبي.. وكان الحقل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صغيرا.. وفي وسطه شجرة بلوط ضخمة.. فقرر ان يدفنه هناك.. وان يعود الى بيته.

في تلك الليلة كان كل شيء في بيت «كازالباشيف» يوحي بان ساكنيه يستعدون لاستقبال عيد ما.. فربة البيت «كازالباشيفا» كانت تحضر الطعام في المطبخ، وتفتح القدور بين حين وآخر، لتتفحص ما قد نضج وما لم ينضج من ألوان المآكل التي تعدها.. فليس بالامر السهل ان تستعد عائلة متواضعة مثل عائلة «كازالباشيف» لاستقبال خطيب ابنتها البكر.. بصورة علنية ولأول مرة.. لاسيما اذا كان ذلك الخطيب هو «ستويكو» ابن الوجيه المعروف السيد يورتالان..

أما «سيفدا» ـــ الخطيبة ـــ فقد كانت تكنس صحن الدار بسعادة ملحوظة.. وتنفذ أوامر أمها بمزيد من النشاط، كل ذلك وهي تضحك وتغني وتمازح اخوتها الصغار الذين لم يكونوا ليدركوا مغزى انشراح أمهم على وجه الدقة، لكنهم كانوا سعداء برائحة الطعام الشهي التي كانت تعبق من المطبخ، ويلقون بين حين وآخر نظرة الى ابيهم الذي كان جالسا على كرسي صغير

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أمام المطبخ، يدخن، وينصت الى صوت خرير النهر البعيد، كما لو انه غير مهتم بكل مايجري في بيته، غير انه في الحقيقة كان على غير مايبدو عليه، اذ كان عظيم السرور برغبة عائلة يورتالان بخطوبة ابنته «سيفدا» الى ابنهم «ستويكو»، فليس أمرا عاديا ان تطلب اغنى عائلة في قريته يد ابنته، لذا فقد كان يتصور كيف ستغار الجارات من زوجته، ويحسدنها على حظ ابنتها، وكيف سيزداد احترام الرجال له بعد ان يصبح قريب «يورتالان».. وبينما هو غارق في مثل هذه الافكار، سمع فجأة صوت زوجته — كازالباشيفا — وهي تقول له:

— مابك جالس كشحاذ أمام باب الكنيسة ؟ لماذا لاتنهض كي تعاوننا..

فما كان من كازالباشيف إلا ان، أجابها بلهجة جدية:

— يالك من امرأة فظيعة.. ما ان تريننني جالسا قليلا حتى تحارين في كيفية ازعاجي.

— انت مخطىء يازوجي العزيز.. أقول لك لماذا لا تنهض كي تعشي الثورين الجائعين في الاصطبل ؟..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ وهل يدخل هذا ضمن استعداداتك لاستقبال صهرك المبجل ؟..

ـ وهل تستهزىء ..؟

ـ كلا .. أنا لااستهزىء .. لكن اسمعي ياامرأة .. أنا لاأصدق إلا عندما يأتي « يورتالان » بنفسه ليطلب يد ابنتنا .. أما ان يأتي « ستويكو » وحده .. ويقول لنا ان أباه موافق .. فهذا وحده لايكفي ..

ـ حسنا .. حسنا .. سيأتي .. قم أنت واطعم الثورين ..

ـ ولماذا يجب ان اطعمهما أنا ؟.. أين هما (ديميتر) و(لاندون) ؟ لماذا تأخرا ..؟

ـ اف منك .. الافضل للانسان ان ينجز العمل الذي يطلبه منك بنفسه ..

تضايق والد سيفدا من كلام زوجته ، فما كان منه إلا ان نهض من مكانه وسار باتجاه النهر القريب من المنزل ، حيث وقف يحدق في الظلمة المحيطة به من كل جانب .. والتفت صوب البيوت من خلفه .. ليرى كيف كانت أنوارها تطفأ واحدا بعد الآخر ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أما ابنته « سيفدا » فانها بعد ان اطمأنت على ان كل شيء اصبح جاهزا، وان بامكانهم ان يضعوا المائدة بمجرد وصول حبيبها « ستويكو » فانها توجهت صوب البئر، حيث وقفت تنتظر قدومه، بيد انها لاحظت في هذه المرة ان الظلام كان محلولكا بصورة غير عادية، وطال بها الانتظار، لكنه لم يأت، حتى كادت ان تقطع أملها، فما كان منها إلا ان تحركت باتجاه باب الدار، ووقفت قرب الحائط، وارهفت سمعها في السكينة لعلها تسمع وقع خطواته، لكنها لم تكن تسمع سوى نقيق الضفادع من صوب النهر بين آن وآخر..

سمعت « سيفدا » فجأة صوت أمها التي بحثت عنها قرب البئر فلم تجدها فخرجت الى قارعة الطريق، لتسألها:

ـــ سيفدا.. هل أنت متأكدة من أنه سيأتي هذه الليلة ؟..

ـــ لقد دعوته ياأمي..

ـــ ماذا قال لك هو ؟..

ـــ قال لي انتظريني.. سوف آتي.. حتى ولو بعد منتصف الليل..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـــ حسنا .. سننتظره .. ولكنه تأخر كثيرا ..

واقترب منهما الأب الذي لمحتا في الظلام بصيص سيجارته ، وهو يقول :

ـــ ألم انبهكما الى أنه ليس من داع الى كل هذه (العبطة) .

فأجابته زوجته بعصبية :

ـــ اخفض صوتك يارجل .. سوف يسمعك الجيران ..

ـــ حسنا .. سوف اخفض صوتي .. وأضاف موجها كلامه الى ابنته : أما أنت ياابنتي فيجب أن تلقنيه درسا في أصول التصرف .. قولي له .. يجب عليك ان تعد وتفي بوعدك .. أمي ليست صغيرة ..

تدخلت « كازالباشكا » وقالت لزوجها :

ـــ اسكت .. اسكت .. كل ما في الامر ان والده الطماع قد كلفه بعمل ما ..

فقال لها : « كازالباشيف » :

ـــ أنا على حق .. لقد قلت لك اكثر من مرة انه لايزال صغيرا .. لو كان يملك زمام أموره ، لقال لوالده : انني ذاهب هذه الليلة لزيارة بيت خطيبتي ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم تتمالك «سيفدا» اعصابها فانفجرت بالبكاء، فقالت أمها لابيها عندما رأتها تبكي:

ـ كم أنت صعب يارجل... تحب ان تعقد المسائل.. قال انه سيأتي ولم يستطع، هذا كل مافي الأمر.. فما لك أنت ؟.. نحن طبخنا.. ونحن نظفنا البيت..

ـ انتم طبختم.. وأنتم نظفتم البيت، لكنكم لم تتذكروا ان الشاب الأعزب يوم هنا.. ويوم هناك.. هذه هي القضية.

كان يورتالان وابنه «ستويكو» يحثان سيرهما في العتمة باتجاه الحقل. حيث الجثة.. وقد حملا رفشا ومعولا صغيرين ليحفرا بهما القبر، ويواريا الصبي، ودون ان يشعر بهما أحد..

كان «ستويكو» يخفي خوفه عن أبيه، ولم يكونا ليسمعا غير صوت عواء كلب أو نهيق حمار بين حين وآخر، ولكن ذلك كان يخيفهما ويكتم انفاسهما، اذ كانت خشيتهما كبيرة من ان يراهما أحد، وهما في طريقهما لانجاز تلك المهمة الرهيبة..

كان «ستويكو» يسمع دقات قلبه المتلاحقة بأذنيه، وهو يتذكر حكايات جدته عن الأطفال الذين يذهبون بعيدا،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فيخطفهم الاشرار، ويقتلونهم، ثم يهيلون عليهم التراب، وكان يحاول جاهدا ان يطرد تلك الصور الرهيبة من ذهنه، وتذكر حبيبته «سيفدا»، التي كان يجب عليه ان يكون عندها في البيت في تلك الساعة المتأخرة من الليل، بدلا من ذهابه مع أبيه لدفن قتيل وتصور «ستويكو» حبيبته «سيفدا».. وهي تنتظره عند البئر، وتذكر غرفة الضيوف والارائك ورائحة النفتلين أيضا.. وقال في سره: يا للمسكينة.. انها قلقة علي الآن.. وماذا ستقول عني أمها ؟، كذاب ؟.. ياللعار.. هل أنا أكذب على حبيبتي ؟.. هذا غير ممكن.. ولكنه القدر.. وفكر ستويكو بكذبة بيضاء يرويها لها عندما سيزورهم في الليل.. سيدعي أمامها ان والده أمره بالذهاب الى بئر «تشيريب» لينزح الماء ويسقي حقلا لهم هناك.. كان «ستويكو» يعلم حق العلم ان «سيفدا» سوف تأبى حتى معاتبته.. ولكن ما العمل ؟.. لقد حدث ماحدث.. فلتغضب.. سوف ترضى فيما بعد.. سيحاول جهده ارضاءها.. المهم الآن هو ان ينجز مع أبيه تلك المهمة اللعينة.. ان يدفنا الميت.. وأحس «ستويكو» بقشعريرة تسري في بدنه عندما ذكر لنفسه هذه الكلمة: ميت..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كلما كان الاب وابنه يقتربان من المكان، كان «ستويكو» يزداد خوفا ورهبة.. كان يخشى ان يراهما أحد.. وان يأتي المحقق ليستجوب والده العجوز.. وان يقوده الدرك الى المحاكمة ليلقى عقابه الفظيع.. كالسجن مدى الحياة. هذا على أقل تقدير.... وماذا سيفعل هو وحده ؟.. كيف سيتدبر أمر العائلة والعمل ؟.. ولكن هل سينجو هو الآخر من العقوبة ؟.. ألن يعلم المحققون انه قد ساعد أباه في اخفاء آثار الجريمة ؟.. في دفن فتى بريء..؟.. ولكن ترى من هو ذلك الفتى ؟.. واقشعر بدن «ستويكو» من جديد، عندما تصور نفسه، وهو يشعل عود الثقاب ليتأمل وجه القتيل كي يتعرف اليه..

لم يكن أبو ستويكو ــ يورتالان ــ بأقل هلعا من ابنه ــ، اذ انه هو الذي قتل الصبي، وكان يتصور نفسه وهو في ساحة الاعدام، تنهال عليه الرصاصات من كل صوب لتثقب جسده.. وهو الرجل المسالم الذي كان ينتظر موته تحت شجرة الاجاص في حديقة منزله.. وتوجه «يورتالان» في سره، وهو يسير الى جانب ابنه، الى ربه بالدعاء، ونذر ان يركب لايقونة السيدة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العذراء التي في كنيسة القرية يدا من فضة، اذا ما انتهت الامور على خير.. وسأل ابنه «ستويكو» فجأة:

ـ هل اقتربنا ؟..

فأجابه «يورتالان»: بقي القليل..

وتابع الاب وابنه سيرهما في الليل الرهيب، وكان ستويكو يسمع بين حين وآخر آهة تنطلق من صدر أبيه، دون ان يدري ماذا بامكانه ان يقول له، وفجأة زلت قدم «يورتالان» وسقط في حفرة الى جانب الطريق، فاضطرب ستويكو اضطرابا شديدا، وانحنى يتلمس الحشائش والأحجار بيديه، وهو يقول: ماذا جرى ؟

صدرت عن يورتالان أنة عميقة وأجاب:

ـ لاشيء.. لاشيء..

وبعد لأي استطاع «ستويكو» ان ينتشل أباه من الحفرة، واقترح عليه أن يستريح قليلا، فاستجاب العجوز لرأي ابنه، وجلس، وطلب من ابنه ان يمد يده الى جيبه، ويخرج علبة الدخان، ليلف له سيجارة، فأدرك ستويكو ان أباه يتألم، بيد أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العجوز ما لبث ان سأل ابنه بصوت خافت : ترى هل درى بنا أحد ؟ فأجابه ستويكو : ليس هنا من أحد ..

ـــ انظر الى هناك .. ألا ترى أحدا ؟

ـــ هنالك شجرة .. ألم تمر بالقرب منها قبل قليل ؟..

ـــ نعم .. نعم .. تذكرت .. ولكن أين سندفنه ؟

ـــ لست أدري .. لكننا سنجد من أجله مكانا مناسبا ، ولن نعود من هنا قبل ان نطمئن تماما ..

ـــ هذا جيد .. ولكن أين سندفنه ؟

ـــ اسمع ياأبي .. الآن عرفت .. هنالك تحت شجرة الزعرور العجفاء فوق الهضبة .. صحيح ان الارض صلبة قليلة ، ومغطاة بالاحجار ، وأننا سنتعب قليلا .. ولكن المكان موحش .. ولايقصده أحد ..

ـــ حسنا .. حسنا .. ولكن يجب أن ننهي الموضوع ..

ـــ سننهيه .. أما أنت فستساعدني قدر المستطاع .. انك متعب .. هل تشعر بألم ما في مكان ما من جسمك بسبب سقوطك في الحفرة ؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ اشعر .. ولكن .. الاهم من ذلك هو انهاء الموضوع ..

ـ هيا ..

ـ هيا ..

واتجه الرجلان الى مكان الجثة المغطاة بالتراب والحشائش .. والتي وجدها «يورتالان» بصعوبة بسبب الظلام .. فما كان من «ستويكو» إلا ان أشعل عود الثقاب ، وتأمل وجه الفتى الميت ، فارتعدت فرائصه ، وقال لابيه :

ـ هل تعلم ابن من هذا ؟

ـ ابن من ؟

ـ انه ابن «استاروف غوتشا» ؟

ـ ابن استاروف غوتشا ؟ ياللمصيبة ..

كان «استاروف غوتشا هذا قريبا من أقرباء يورتالان .. وقد تذكره العجوز جيدا .. فكرر ذهله : يا المصيبة ..

حمل الاب والابن جثة الصبي الميت في الظلام ، وبدأا بتسلق الهضبة الصغيرة باتجاه شجرة الزعرور العجفاء ، والعرق يتصبب منهما ، ولما وصلا الى المكان الذي حدده ستويكو ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وضعا الجثة على الأرض، وبدأ ستويكو بحفر التراب القاسي بالمعول، غير ان أباه نبهه بصوت خافت ــ اياك ان يسمعنا أحد..

فقال له «ستويكو»:

ــ اجلس انت.. ودخن سيجارة..

عندما جلس يورتالان على حجر قرب ابنه الذي كان يحفر القبر، أحس بارتجاف ركبتيه من الذعر، وشعر انه بحاجة الى نوم عميق، وطويل خال من الاحلام والتفكير ورؤية البشر..

كان العجوز يمص سيجارته، وينفث دخانها، وهو يفكر بما سيحمله له الغد.. السجن..؟ أم ماذا..؟ لكنه سمع فجأة صوتا غريبا وقال لابنه: اسمع هل اتى أحد؟

توقف ستويكو قليلا عن الحفر، وأصاخ سمعه، ليتأكد ان ماسمعه أبوه ليس سوى صوت طائر ليلي لايعرف اسمه، فقال لابيه:

ــ لاشيء.. لاشيء.. مجرد طائر صغير.

ــ لعنة الله عليه..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تابع ستويكو عمله ، وأبوه يدخن سيجارة تلو اخرى ، وهو يحدق في الظلام ، فلايرى سوى شبح ابنه وهو يستقيم وينحني فوق الحفرة التي يعدونها لدفن الصبي الميت ، وفجأة توقف ستويكو عن الحفر ، ليسأل أباه :

ـــ تعال .. انظر .. هل يكفي ؟

اضطجع يورتالان على الارض ، ومد يده الى الحفرة ، فلم تلمس اصابعه قعرها .. فقال له ابنه :

ـــ ماذا تقيس ؟.. الا ترى انني في قعرها ، وقد وصلت حافتها الى كتفي ؟.. أعمق من هذا لايمكن .. لقد وصلت الى الصخر ..

ـــ حسنا .. حسنا ..

وحمل الاثنان جثة الصبي الميت ، وكان القمر قد بزغ من بين الغيوم ، ومدداها في قعر القبر ، ولاحظ ستويكو وجه القتيل ، وقد اضاءته الاشعة الفضية .. وقال لابيه :

ـــ مسكين أبوه ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فما كان من «يورتالان» إلا ان تلعثم وهو يجيب: هذا ماجرى.. انها مصيبة حقيقية..

أهال ستويكو التراب على الجثة ثم دحرج عددا من الاحجار التي جعلها فوق ذلك التراب، ليهيل عليها ترابا آخر، ولما انتهى، قال لابيه: هذا كل مايمكن ان نفعله.. هيا.. يجب ان نعود..

قبيل الفجر.. كان الاب والابن قد وصلا الى القرية، وقد اتبعا طريقا بين الحدائق والصخور، كي لايراهما أحد، فما أن دخلا البيت، حتى سألتهما زوجة يورتالان بقلق: هل انتهى كل شيء على مايرام ؟..

فأجابها زوجها: الآن.. نعم.. أما مايمكن ان يحصل فيما بعد ؟..

وجلس يورتالان على الأرض، وقال لزوجته:

ــ لقد نذرت للسيدة العذراء خروفا.. فقالت له زوجته:

ــ حسنا.. فعلت..

ــ هيا احضري لنا شيئا من الطعام... سنخرج بعد قليل الى العمل..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ ألن تستريحا اليوم ؟

ـ كلا .. هيا انهضي ..

كان يورتالان في الحقيقة يريد ان يخرج كعادته الى العمل كي لايلفت نظر أحد في القرية ، رغم ان قواه كانت خائرة تماما ، بيد أنه كان مسرورا جدا من ابنه «ستويكو» وكان «ستويكو» يشعر بذلك ، ويدرك سبب اصرار أبيه على خروجهما الى الحقل ، لذا فقد خرج ليجهز العربة ، وليشد إليها الحصان ، وما أن فرغ ، حتى دعا أباه للركوب ، فترك «يورتالان» المائدة ، وصعدا الى العربة ولسع «ستويكو» ظهر الجواد بسوطه لسعة خفيفة ، فانطلقت العربة كعادتها كل صباح ، بيد ان يورتالان كان يسأل نفسه عما اذا كان أهل القرية قد عرفوا باختفاء الصبي ، لذا فقد كان يطلب من ابنه ان يتوقف بين فينة وأخرى ، لينزل من العربة ، ويحيي بعض أهل القرية بحجة شعل سيجارته ، لكنه لم يسمع شيئا من أحد ، ولما أحس يورتالان بألم في رأسه ، قال لابنه بصوت خافت :

ـ لقد كانت ليلة قاسية يابني ..

ـ مضت على خير ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ ولكن اسمع ياستويكو .. اخشى ان يكون الصبي قد قال لاصدقائه الصغار ، انه ذهب لسرقة عرانيس ذرة من حقلنا .. أخشى أن يكون قد ذكر اسمي ... اذا كان قد فعل ذلك ، فانهم سيستجوبونني حتما ..

ـ سوف تنكر .. وأنا أيضا سوف أنكر .. لم نره .. لم نسمع .. لانعرف ..

ـ هذا صحيح اذا مااستجوبنا دركي عادي .. أما اذا وصل الموضوع الى مقامات أعلى .. فهنالك الموضوع مختلف تماما .. هنالك سيستجوبنا محققون دهاة .. أين كنا في كل لحظة .. ومتى ..؟ ولماذا ..؟ وكيف ..؟ لذا فانني أشعر بألم شديد في رأسي منذ الآن ..

ـ لاتخف لن يحصل شيء من هذا القبيل ..

ـ لكنهم اذكياء ياولدي .. يسخرون كل علومهم لكشف الانسان على حقيقته ، مثلي ومثلك لانستطيع ان نكذب عليهم ... وسمعت أيضا ان عندهم كلابا سرعان ماتتعرف الى القاتل .. انني خائف ياستويكو .. خائف ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شحب لون «يورتالان» وشعر بكره شديد تجاه المثقفين، وقال في سره: هم الذين افسدوا الكون... وتذكر ما قد قاله صديق له مرة في المقهى من انه منذ ان ظهر المثقفون اختفت البركة من هذا العالم..

وأضاف يورتالان من عنده: صحيح.. لولا ظهور المحامين.. لم تكن هنالك قوانين.. ولكانت المسألة قد حلت عند المختار ووجوه القرية.. ولكان بإمكاني ان أقيم لهم وليمة فاخرة.. وأدس في جيب كل منهم ألف ليفا وأحل المشكلة..

كان يورتالان متجهما، وعيناه لاترفان، كما لو أن الخوف قد جمده، وبقي على تلك الحال طوال النهار، ولما أقبل الليل شعر بقليل من الطمأنينة، اذ كان الظلام يمده ببعض الهدوء، أو يحجبه عن أعين الناس، فعندما أنهى أعماله في الحقل، ركب العربة، وعاد الى القرية، ولما اقترب من البيت قال لابنه ستويكو:

ـــ هيا أنت حل العربة.. وأنا داخل..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وما ان اصبح يورتالان في الغرفة حتى مال على زوجته، وسألها بصوت خافت :

ـــ هل بحثوا عني ؟

ـــ من الذي سيبحث عنك ؟

ـــ أي أحد ..

ـــ لم يسأل عنك أحد .. ولكن لماذا تستفسر .. هل حدث شيء جديد ؟

ـــ هل سمعت أنت شيئا ؟

ـــ قلت لك لم اسمع شيئا ..

خرج يورتالان من الغرفة، ونظر الى السماء، المرصعة بالنجوم، ودعا الله قائلا :

ـــ ساعدني يارب .. على هذه الورطة ..

في تلك الليلة خرج والدا توميتو وهذا هو اسم الصبي القتيل يبحثان عن ابنهما من بيت الى بيت، وأيقظا بعض أصدقائه ليسألاهم عما اذا كانوا يعرفون شيئا عن سبب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اختفائه.. بيد ان الصبيان كانوا يهزون أكتافهم بالنفي.. فلم يعرف الأبوان من اصدقاء ابنهما المختفي سوى أنه كان يلعب معهم قبل الظهر، أما بعد الظهر فقد أخذ البقرة ليرعاها خلف الهضبة، فما كان من أبيه إلا ان أسرع باتجاه الهضبة وهو يتضرع الى الله أن يعيد إليه ابنه سليما، وفي الوقت نفسه كان مصمما على انه اذا ماوجده فانه سوف يؤدبه جيدا.. وما أن اجتاز الهضبة، حتى رأى البقرة نائمة تحت احدى الاشجار، لكنه لم يجد ابنه، وناداه بأعلى صوته، بيد انه لم يسمع سوى صدى صوته تردده الهضاب، فما كان منه إلا ان ساق البقرة، وعاد الى القرية.

قال بعض أهل القرية ان الصبي قد هرب، وانه ما ان سيشعر بالجوع والبرد حتى يعود الى أهله من تلقاء نفسه.

أما في البيت.. فكانت أم الصبي المفجوعة بغياب ابنها.. تسأل زوجها كلما عاد:

ـــ ماهي أخباره ؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ لم أجده ..

ـ ماذا يجب أن نفعل ؟..

ـ عندما يعود سوف أتدبر أمري معه ؟

وعندما قالت احدى الجارات لأم الصبي :

ـ أخشى ان تكونوا قد زعلتموه ..

اجابتها الأم :

ـ أبدا .. اننا نحبه .. ولكن حدث قبل أيام ان أتى الى البيت ببضع إجاصات مسروقة فخاصمته .. وألقيت بالاجاص للخنازير .. هذا كل مافي الامر ..

فما كان من الأب إلا ان قال :

ـ أخشى ان يكون قد غص بذنب إجاصة مسروقة قد أكلها ..

فقالت الأم :

ـ بل أخشى ان يكون قد سقط في البئر .

فأجابها الأب مستنكرا :

ـ بئر ..؟ أية بئر يامجنونة ..؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكنه خرج مع ذلك .. وفي صباح اليوم الثاني ليفتش كل آبار القرية .. دون أن يجد شيئا ..

لم يعد الصبي، ولم يحمل أحد أي خبر عنه، وفي صباح اليوم الثالث أو الرابع استنجد أبوه باخوته وابناء عمه وكل أقاربه، لمساعدته في التفتيش الدقيق عن ابنه المفقود .. في الغابة .. وفي الآبار .. وفي الوادي .. وبين الصخور .. وفي الاكواخ المهجورة ..

كانوا قد سألوا كل من صادفوه :

ــ ألم تروا لنا صبيا في العاشرة من عمره، أشقر الشعر، حافي القدمين، يلبس قميصا ملونا، وبنطالا قصيرا، ويحمل كيسا مخططا ؟

كان الناس ينظرون إليهم باستغراب ويهزون أكتافهم بالنفي، ويمضون، وأرسل المختار رسائل الى مخاتير القرى المجاورة، ورجاهم ان يبحثوا عن الصبي واتصل بالهاتف بمركز القضاء، وأعلم المركز بحادث الصبي المفقود، فوعدوه بالبحث عنه ..

وعندما قال أبو الصبي لاصدقائه في المقهى : انني بدأت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أشك في أن الغجر قد خطفوه.. قال له أحدهم: لكن ابنك ليس صغيرا.. اطمئن.. سوف يفر منهم ليعود إليك.. انتظر..

أما يورتالان فقد كان يتتبع كل تلك الاخبار بدقة متناهية.. ليزداد شحوبا ونحولا.. وليدخن مزيدا من السجائر.. حتى أنه بدأ يذهب الى المقهى يوميا، ليختلط بالناس، ويجمع ما لديهم من معلومات.. بيد انه كان يشعر عندما يسألونه عن رأيه في الموضوع بجفاف شديد في حلقه.. وهو يخشى ان ينتبه أحد لارتباكه..

وفي يوم الاحد.. عندما عرج «يورتالان» الى حانة «كوتسو» ليشتري علبة من الدخان، شاهد مجموعة من الرجال يشربون النبيذ تحت الدالية، فتقدم نحوهم، لكنه فوجىء بأن والد الصبي بينهم، فارتعدت فرائصه، لكنه لم يرجع، اذ لاحظ انهم قد رأوه، فما كان منه إلا ان اقترب من الرجال وألقى التحية، بيد انه تحاشى النظر في عيني «غوتشو استاروف» والد الصبي، وظل صامتا ينصت بدقة الى الحديث الذي كان يدور بين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجالسين ، ولم يكونوا في الحقيقة يتحدثون عن شيء هام ، بل عن الزراعة والذرة ومتاعب الحياة ، لكن يورتالان ، مع ذلك ، كان يظنهم يغمزون من جانبه .. وكان يزداد قلقا وهلعا حتى بدأ يشعر كما لو انه جالس فوق الشوك .. ولما اراد ان يقول شيئا خشى أن يتلعثم ، ففضل السكوت .. الى أن أتاه صاحب الحانة قائلا : ماذا سيشرب العم يورتالان ؟.. فأجابه يورتالان : أعتقد ان الراكيا يمكن ان ترطب الجسم في هذا الحر ..

قال يورتالان ذلك ، وأخرج علبة سجائره ، وقدم لكل واحد من الجالسين سيجارة ، وعندما وصل الدور الى والد الصبي سأله يورتالان :

ـــ كيف حالك يا ابن العم ؟.. لاتقلق الى كل هذا الحد ... ان ابنك سيعود خلال اسبوع على الاكثر .. يقولون انه هرب ..

فسأله الاب مستغربا :

ـــ هرب ..؟

فقال له يورتالان :

ـــ هذا بعض ماسمعته .. وهو ممكن ... ولم لا ..؟.. صحيح انك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أب عطوف لانك رجل طيب كما أعرفك.. لكن الاولاد في مثل سن ابنك يمكن ان يرتكبوا مثل هذه الحماقات.. ابني «ستويكو» عندما كان في مثل سنه هرب لمدة يومين، ثم عاد مع حماره..

قال يورتالان ذلك، ثم التفت الى صاحب الحانة، وطلب كأسا من الراكيا لوالد الصبي الذي سأله:

ـــ والى أين كان قد هرب ابنك ستويكو ؟

فأجابه يورتالان:

ـــ هرب الى قرية قريبة.. وبات عند أحد أقارب أمه يومين..

هنا تدخل «ترتشيلجي» في الحديث، وقال ليورتالان:

ـــ لكن ابنه غائب منذ عدة أيام..

تلعثم يورتالان قليلا.. بيد انه قال:

ـــ هذا يعني انه اجرأ من ابني.. سيعود.. سيعود..

فالتفت اليه غوتشو استاروف.. وسأله:

ـــ ولكنني هل استطيع، وأنا أبوه، ان أقول لنفسي، انه سيعود، دون ان أفعل شيئا..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فسأله يورتالان متصنعا الحماسة :

ـــ هل بحثت عنه في القرى المجاورة ؟

ـــ نعم بحثت ..

ـــ هل ذهبت الى بلوفديف ؟

ـــ تقصد الى المدينة ؟

ـــ نعم الى المدينة .

ـــ وكيف سأبحث عنه في المدينة ؟

ـــ ستبحث عنه في الاسواق .. قد تجده واقفا يتأمل واجهة أحد المخازن ..

ـــ ومن أين يعيش ..؟.. وماذا يأكل هناك ؟

قال له يورتالان بنزق مصطنع :

ـــ عجيب طبعك يا «غوتشو» .. تسأل ماذا يأكل ..؟.. انه يشتغل .. هنالك يبحثون عن صبية في مثل سنه يرضون بأجر قليل لقاء عمل كثير .. قد تجده في مقهى مثلا .. يحمل الماء للزبائن ..

هنا تدخل صاحب الحانة مؤيدا كلام يورتالان وقال لولد الصبي :

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ اسمع ياغوتشو استاروف .. ان ما يقوله العم يورتالان وارد .. سر يورتالان من تأييد صاحب الحانة لكلامه .. بيد أن والد الصبي المفقود هز رأسه بأسى، وقال :

ـ أصبحت لا أعرف شيئا ..

فقال له يورتالان :

ـ اسمع ياغوتشو .. نحن أبناء عم .. اذا كنت بحاجة الى مساعدة لتسافر الى المدينة، وتبحث عن ابنك، فانني مستعد .. هذا واجبي ..

وعندما خرجا في وقت متأخر من الحانة، قال يورتالان لغوتشو :

ـ تعال معي الى البيت كي اعطيك شيئا من المال تسافر به للبحث عن ابنك ..

رفض غوتشو استاروف عرض يورتالان عليه .. قائلا :

ـ شكرا .. قد أمر فيما بعد .. وودعه ومضى ..

عندما دخل يورتالان الى بيته كان هادئا بعض الشيء، بيد انه كان لاينسى ذلك القبر الذي دفن فيه هو وابنه ستويكو الصبي المسكين ولو للحظة واحدة، لذا فانه ما لبث ان طلب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من ابنه ان يذهب الى هناك، حيث القبر، ليرى ما اذا كان كل شيء على مايرام، فنفذ ستويكو رغبة أبيه، وخرج من البيت تحت جنح الظلام، وغاب ساعتين من الزمن، ثم عاد ليقول لابيه انه قد رأى رمادا وآثار شواء ذرة فوق القبر، وانه ليس من تفسير لذلك سوى ان بعض الناس قد جلسوا في ذلك المكان، دون ان يلاحظوا شيئا غير طبيعي، وشووا بعض العرانيس، وأكلوها، ومضوا.. فسر يورتالان سرورا عظيما.. لكنه قال لابنه: هذا جيد.. ولكن غدا.. عندما يأتي الشتاء، وتهطل الأمطار، يجب ان نذهب ونضع قليلا من التراب والحجارة فوق القبر، ذلك لانه سيغور قليلا..

مضى شهر من الزمن تقريبا.. وبدأ يورتالان يعود الى طبيعته بعض الشيء.. لاسيما وانه كان قد حان موعد درس الحبوب فما كان منه إلا ان جمع بعض أقاربه الفقراء واجرائه، الذين تعود ان يشغلهم عنده كل عام لمساعدته.. وبدأ يقفز من مكان الى آخر.. يأمر وينهي.. يلاطف ويستحث الهمم على العمل.. ثم حمل المحصول الى بيته، حيث ملأ به عنابره الضخمة، أما عندما كان يتذكر موضوع الصبي، فانه سرعان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ماكان يلهي نفسه بشيء ما آخر .. اذ كان لايريد ان يستعيد صور ذلك اليوم الرهيب في ذهنه أبدا ..

وبينما هو منهمك في عمله ، سمع فجأة احدى الفلاحات وهي تقول :

ـــ لابد ان الصبي قد غرق في النهر .

فأجابها زوجها :

ـــ كلا .. لم يغرق .. انما ذهب أبوه ليبحث عنه في بلوفديف حيث يعمل أجيرا في أحد المخازن .. هذا ماسمعته .

Telegram:@mbooks90

وتوقف يورتالان لينصت باهتمام الى كل مايدور حول موضوع الصبي المفقود من حديث بين العمال .. فتذكر ، بالرغم منه ، وجه الميت تحت ضوء القمر ، عندما دفناه هو وابنه ستويكو ، فارتعدت فرائص يورتالان من الخوف ، وتذكر انه قد نذر خروفا ليذبحه ويوزع لحمه على الفقراء قرب الكنيسة .. وقال يورتالان في سره : مادامت السيدة العذراء قد استجابت لدعائي ، ولم يكتشف أحد حتى الآن آثار فعلتي ، فلابد من أن أفي بالنذر ... غدا ، « الاحد » حتما .. وعندما عاد الى البيت قال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لزوجته انه قد قرر ان يفي بنذره .. وأن عليها ان تذهب مع ابنيها «ستويكو» و «اليكسي» وأن تصطحب معها من ترغب من النساء ... ليذهبوا جميعا الى الكنيسة ويقوموا بالواجب .. بيد ان زوجته اعترضت على ذلك بما كان ينتظرها من أعمال في اليوم الثاني ، لكنه عبس وقال لها :

ـــ هذا أهم من كل شيء آخر .. سوف تذهبون .. وأنا الذي سأجلب البقرات ... وأقوم عنك بكل أعمالك .. كوني مطمئنة ...

لما شعرت زوجة يورتالان ان زوجها مصر على ذلك، شمرت عن ساعد الجد، وتراكضت كعادتها في صحن الدار، فدخلت الى العنبر، ثم الى المطبخ، وحملت أشياء لالزوم لها، ووضعتها في غير أمكنتها، بينما كانت تقول أشياء غير مفهومة ..

ـــ ياالهي .. ياالهي .. امرأة واحدة لكل هذه الدار الواسعة ؟

ولما اعتقدت انها قد انجزت أعمالا هامة، أرسلت ابنها «ستويكو» الى بيت خطيبته « سيفدا » .. ليدعوها هي وأمها واحدى قريباتهم للذهاب معهم الى الكنيسة، وليبلغهم باعتزاز أن أباه يريد ان يفي بنذر عليه للسيدة العذراء .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندما علمت أم « سيفدا » من ستويكـو بذلك، استشارت « كازالباشيف » الذي لم يبد ممانعة في ذهابهم مع زوجة يورتالان الى الكنيسة، فأبلغت خطيب ابنتها بقبولها دعوة أمه.. وطلبت منه أن يذهب ويقول لأمه ذلك، على شرط ألا ينسى أن يسهر عندهم في الليل..

في صباح اليوم الثاني كانت عربتان جاهزتين على الطريق قرب القرية، مالبثتا أن انطلقتا وهما تحملان الجميع باتجاه جبال « الرودوبي » حيث تقبع على سفح أحد الأودية كنيسة لها مكانة مقدسة في قلوب جميع أهل المنطقة.

كانت الانسام المنعشة تداعب خصلات شعر « سيفدا » التي لم تكن قد غادرت قريتها من قبل الى أي مكان بعيد لذا فقد كانت تتأمل الآفاق الزرقاء بنشوة عارمة، ثم تختلس النظر الى حبيبها « ستويكو » الذي كانت تشعر انه ليس على مايرام، دون أن تعرف سببا لذلك، بيد أنها كانت تعود لتسأل نفسها: أي شيء عظيم هذا العالم الرائع ؟..

كان كل شيء حول « سيفدا » يبدو جديدا ومدهشا.. لكنها كانت تنتظر بلهفة شديدة رؤية الكنيسة الكبيرة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعد الظهر، مرت القافلة بقرية « ستانيماكا »، ثم وصلت أخيرا الى « تشايا »، حيث كانت تصطف مئات العربات الاخرى حول الكنيسة، اذ كانت هنالك مناسبة دينية يفضل ان يفي الناس نذورهم فيها، فتلفتت « سيفدا » لترى الخيام والنساء والاولاد والقدور والبسط الملونة المفروشة على الارض، فما كان منها إلا ان خطت بضع خطوات مبتعدة عن العربة، ثم رفعت رأسها، لتتأمل الجبال الشاهقة المحيطة بها من كل جانب، وعندما لاحظت سهلا مزروعا فوق سفح عال صرخت، مندهشة :

ـــ كم هو عال هذا الحقل..؟.. وأشارت اليه بيدها.. فركض ستويكو نحوها، ووقف الى جانبها، وقال لها :

ـــ هنا هكذا.. فوق الجبال حقول وسهول.

ـــ وكيف يصعد الناس الى هناك ؟

ـــ انهم معتادون..

ـــ وهل خلف هذه الجبال.. جبال أخرى ؟

ـــ نعم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـــ وهل خلف الكنيسة غير هذا الجبل ؟

ـــ نعم .. بالتأكيد ..

ـــ يا الهي ..

قالت « سيفدا » ذلك، وفكرت كيف انها كانت تنظر الى جبل الرودوبي من قريتها دون أن يخطر في بالها انه يتألف من ألف جبل وجبل ...

بيد أن الكنيسة لم تكن كما تصورتها، بل كانت عبارة عن بناء رمادي ضخم أقيم في مكان ضيق على سفح جبل، بينما يجري بالقرب منها نهر هادر ..

تجولت « سيفدا » بين المحتفلين وتأملت الوجوه الفخورة الباسمة، ثم ما لبثت ان صدحت موسيقى مبهجة، وارتفعت من هنا وهناك أكثر من أغنية شجية .. وكان بعض الشباب والصبايا يتنزهون بثياب أهل المدن التي كانت « سيفدا » تحبها كثيرا .. وتغبط لابسيها على سعادتهم بها ..

سار « ستويكو » الى جانب حبيبته « سيفدا » .. وحاول ان يتأبط ذراعها لكنها خجلت، وانضت، اذ كانت ترمقها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قريبتها السيدة « ديموفا » .. بالاضافة الى أمها .. بيد أنها وبسبب من الحاحه قبلت أن ترقص معه أكثر من رقصة ، ولم يكن هنالك بين مئات المحتفلين من لايعرف ان يرقص ويغني .. أما «كازالباشيفا» — أم سيفدا — فقد كانت ترمق ابنتها بنشوة عارمة .. وهكذا وبعد ان مرت الساعات بين رقص وغناء وأكل وشرب وتعارف بين الناس الآتين من عشرات القرى ومن المدينة أيضا .. وغابت الشمس خلف الجبل القريب .. أوى كل الى قرب عربته .. وما هي إلا ساعة من الزمن حتى فرش الجميع بسطهم وأغطيتهم .. واستسلموا لنوم لذيذ وعميق وهم يحلمون بصباح اليوم الثاني الذي سيطلقون فيه لنفوسهم عنان المرح الى أبعد الحدود .

عندما انزاح الظلام عن قمم الجبال تململ مئات الناس النائمين حول الكنيسة ، واستيقظ بعضهم على أصوات الخيول والثيران ، وعندما قرعت الأجراس قالت : « يورتالانكا » بصوت مسموع :

— يا الهي منذ متى وأنا مستيقظة ولا انهض ؟.. ثم جلست ورسمت اشارة الصليب على صدرها .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولما كانت « كازالباشكا » مستيقظة أيضا، فانها سرعان ماصبحتها بالخير، ورسمت بدورها اشارة الصليب، ثم قالت :

ـــ ماذا سنفعل هذا اليوم..؟

ـــ سنشتري الخروف.. ألم أقل لك اننا قد نذرناه لابني « اليكسي » عندما كان صغيرا..؟

ـــ ومن أين سنشتريه ؟

ـــ من الكنيسة.. واذا لم نجد فاننا سنبحث في « باتشكوفو »..

تلك القرية القريبة..

ـــ اذن يجب ان نسرع قبل ان يبيعوا الخراف.. وستذهب معنا « ديموفا ».

ـــ حسنا.. لنذهب.. آه انها امرأة مسكينة حقا.. يجب ان تتسلى..

قالت زوجة يورتالان ذلك ثم غمزت بعينيها وسألت كازالباشكا :

ـــ والعروس. ؟

عندما سمعت « كازالباشكا » هذه الكلمة أحمر وجهها، دون ان تدري ما هو السبب.. بينما علا صوت ستويكو قائلا :

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـــ هيا انهضوا .. واستعدوا .

غمزت يورتالانكا بعينها من جديد ثم قالت لكازالباشكا :

ـــ ما لنا إلا ان نتمنى لهما السعادة .. أما نحن فقد كبرنا .. وجاء دورهم .

كان الطريق الى الكنيسة مزدحما بالناس والعربات، هذا عدا عن السيارات الصغيرة والشاحنات .. فتوقفت العجوز مع ابنها « ستويكو » ليشتريا كعكة للصغير « اليكسي » .. فاقترب منهم قس يريد ان يبيعهم نسخة من الانجيل .. فقالت له يورتالانكا :

ـــ عندنا مثله ..

بيد ان القس لم يرغب في فهم ما قالته، وألح عليهما من جديد كي يشتريا الانجيل، فما كان من العجوز إلا أن أزاحته بيدها القوية . ثم اشترت الكعكة لابنها .. وحثت الخطى هي و« ستويكو » ليلحقا بجماعتهما .. ولما وصل الجميع الى باب الكنيسة الخارجي .. قالت لهم يورتالانكا :

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ انتظروني هنا .. كي أرى ما اذا كان يوجد خروف .. بيد انها دخلت مسرعة واشترت ثلاث شمعات، وعبرت عتبة الكنيسة، لتوقدها أمام أيقونة السيدة العذراء، ولتصلي للرب ضارعة بأن ينقذهم مما هم فيه من هم شديد. ولما تأخرت قليلا دخل « ستويكو » ليبحث عنها .. فما ان رآها وهي تصلي حتى تذكر أباه، فقالت له أمه :

ـ لم أعرف أين يبيعون الخراف ..

فما كان من ستويكو إلا ان أمسك بيدها، وسأل أحد القسس عن مكان بيع الخراف، فقال له : خلف الكنيسة .. فاتجه كل من الام والابن الى ذلك المكان ليروا ثلاثة رجال يبيعون الخراف .. فتقدم ستويكو نحو أحدهم وسأله عن خروف سمين، اذ تذكر ان أباه « يورتالان » كان قد أوصاه بأن يشتري أفضل خروف يجده، فنظر اليه الرجل متفحصا وقال له :

ـ ولماذا تريد الخروف ؟

ـ أريده للكنيسة .. نذر ..

فقال له الرجل :

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـــ اذا كان للكنيسة فخذه بسبعمائة ليفا .. أما اذا كان لغرض آخر فان ثمنه ثمانمائة ..

أدرك ستويكو من كلام الرجل انه تابع للكنيسة، بيد انه شد الخروف من قرنه، فوجده قويا وعنيدا، فقال في سره:

انهم سيأخذون مني ثمنه، ثم سيستعيدونه ولن يذبح، ولكن ما العمل ؟.. هذا هو الواقع.. المهم هو النية.. ان أبي قد نذر خروفا.. ونحن نفي بالنذر.. ثم مد يده الى جيبه، وحاسب الرجل، فما كان من أمه الى أن اقتربت من الخروف وفي يدها شمعة مشتعلة، لتثبتها على قرنه، فقال « ستويكو » لنفسه: ترى ماذا سينفعنا كل هذا..؟ لكن أمه جثت على ركبتيها، وابتهلت الى الرب بأن يحفظ زوجها وأولادها وان يجنبهم كل مكروه، ولما انتهت من ذلك قالت لابنها:

Telegram:@mbooks90

ـــ هيا ياستويكو .. خذ الخروف .. وأعده للرجل..

شد ستويكو الخروف من قرنه، وأعاده للرجل قائلا:

ـــ تفضل استلم..

فهم الشماس لهجة ستويكو، لكن ذلك لم يكن بالامر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الهام بالنسبة له، اذ كان قد تعود سماع مثل هذه العبارات المبطنة، فأجاب الشاب قائلا :

ــ ليحفظك الرب !

وهكذا استرد رجال الكنيسة الخروف ليبيعوه من جديد..

كان كل الناس في القرية قد بدأوا يتحدثون عن « سيفدا ».. و« ستويكو » لاسيما النساء الثرثارات اللواتي كن يرين « ستويكو » وهو يدخل في وضح النهار الى بيت « كازالباشيف »، ولكن الكثيرين من الذين كانوا يعرفون طبيعة يورتالان كانوا يؤكدون على ان العرس لن يتم، وكانوا يتألمون من أجل ايليا كازالباشيف ــ والد سيفدا ــ ومن أجل سيفدا كذلك.. لكن كوتسو الأعرج قال لبعض الرجال في مقهى القرية :

ــ لا.. لا.. ان الموضوع محلول.. وبعد فترة وجيزة سوف نأكل ونشرب على طاولة « يورتالان » في عرس ابنه ستويكو..

فأجابه ديلتشو سيرتييف :

ــ مادام الامر متعلقا بطاولة يورتالان فانني أشك في ذلك.. واذا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ماحدث شيء من هذا القبيل فتأكدوا اننا سنغص بطعام يورتالان وقد..

فعلق غريستو او ستاليتشيتو:

ـــ اطمئنوا.. ان الشراب سيقدمه كازالباشيف، أبو العروس،

رغم فقره! فقال كوتسو الأعرج:

ـــ إنْ قدمه كازالباشيف أبو العروس، أو يورتالان أبو العريس.. فالأمر بالنسبة لنا سيان.. فاننا سنأكل ونشرب.. وأنا متأكد من أن كل ذلك سيحصل حتما.. فالموضوع مبتوت فيه.. أنا أقول لكم..

فسأله خريستو:

ـــ ومن الذي أبلغك هذا ؟.. يورتالان ؟

ابتسم الحاضرون، لانهم يعرفون جيدا ان يورتالان لايمكن ان يتحدث الى أحد حول أمور تتعلق به أو بعائلته.. لكن « كوتسو » الأعرج قال لهم:

ـــ لقد عرفت ذلك من زوجة يورتالان:

كان كل مايدور في المقهى من تعليقات صحيحا جدا..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اذ أن يورتالان لم يتعود ان يتفوه بكلمة واحدة تتعلق بخصوصياته.. كما أن زوجته لاتتجرأ على سؤاله حتى عن أصغر الامور.. ولم تكن أم العروس، « كازالباشيفا » لتستطيع ان تفعل شيئا سوى التردد الى بيوت العائلات التي تمت الى عائلة يورتالان بصلة قرابة علها تسمع شيئا منهم، وذلك دون أن تسألهم عن أي شيء، كي لايقولوا انها متهافتة على تزويج ابنتها، وهذا أمر غير لائق، بل وصعب أيضا، بيد ان المسكينة سألت ابنتها « سيفدا ».. في احدى المرات، بعد ان زارهم ستويكو في البيت:

ـــ سيفدا.. ابنتي.. ألم يقل لك ستويكو شيئا جديدا..؟

ـــ وماذا يمكن ان يقول ؟

ـــ لست أدري.. لكنني اتساءل.. ترى متى سيفاتحوننا بالموضوع بصراحة؟.. ألا تعتقدين يا ابنتي انه قد حان الوقت ليعلن خطوبته لك ؟.. لقد أصبحنا مضغة في أفواه الناس..

أجابتها سيفدا بأسى واضح:

ـــ لم يقل لي شيئا ياأماه.. لم يقل شيئا..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـــ وأنت .. ألم تحاولي سؤاله ..

ـــ وكيف أسأله ؟..

ـــ جربي ان تستدرجيه بطريقة ما ..

ـــ اعتقد ياأمي انهم سيخطبونني .. وإلا لماذا يأتي لزيارتنا ؟.. ان ستويكو يحبني ..

ـــ أنا واثقة من أنه يحبك .. ولكن المهم ماذا يقول أبوه ..؟

ـــ قال لي ستويكو اكثر من مرة ان أباه وأمه لايتدخلان في موضوع انتقائه لعروسه ..

ـــ هكذا ياابنتي يقول كل الشباب ... ولكن عندما يضغط عليهم أهلهم يتراجعون .

انفعلت « سيفدا » وأجابت أمها بلهجة جدية :

ـــ ستويكو .. لايمكن ان يتراجع ..

كان (كازالباشيف) وزوجته (كازالباشيفا) دائمي التفكير فيما سيحدث بالنسبة لعلاقة ابنتهما « سيفدا » بـ « ستويكو » .. اذ أن الناس كانوا يسألونهما بالحاح عما تم بذلك الخصوص .. بيد أن « ستويكو » .. الذي اصبح يزورهم كل يوم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان لايصرح بأي شيء يشفي الغليل.. وقد جربت أم « سيفدا » .. أن تمازحه من بعيد وقريب لتفهم منه شيئا، لكن دون جدوى، اذ أنه لم يكن يجيبها بأي شيء محدد، وكانت العجوز تتألم من ذلك كثيرا، دون ان تشعره بأي شيء، وتبقى مبتسمة في وجهه مرحبة به، مؤمنة بانه سيصبح صهرها في يوم قريب.. أما زوجها « كازالباشيف » فقد كان أشد انزعاجا منها، ذلك لأنه رجل، ويذهب الى المقهى، ويسأله اصدقاؤه عما جرى بخطوبة ابنته سيفدا.. ولم يكن ليستطيع أن يقول لهم شيئا محددا، حتى انه بدأ يشعر بالخجل والانقباض لمجرد التطرق الى هذا الموضوع.. واستمر الحال على تلك المنوال، الى أن قال ستويكو لأم سيفدا في احدى زياراته لهم: يوم الاحد.. سوف يأتون لطلب يد سيفدا منكم.

تنفست « سيفدا » الصعداء، وفرح العجوزان، ولكن أم سيفدا لم تكن لتصدق ذلك، فهي تعلم ان يورتالان قد يأتي أو لايأتي، لذا فانها سألت ستويكو في اليوم التالي:

— يوم الاحد.. أليس كذلك..؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فأجابها ستويكو :

ـــ نعم يوم الاحد .. لقد حضر أبي مبلغا من المال .. وكتب رسالة الى أختي وزوجها ليأتوا .. اذا أتوا ..

فقالت له كازالباشيفا :

ـــ وكيف لايأتون ؟.. اذا لم يأتوا في مثل هذه المناسبة .. فمتى اذن ..؟

أخيرا أتى الخطاب ليطلبوا يد « سيفدا » من ذويها رسميا .. يورتالان وزوجته .. وابنته وصهره .. فاستقبلهم والد سيفدا بفرح واحترام .. ورحبت بهم كازالباشيفا ـــ أم سيفدا ـــ بحرارة ، وكان يورتالان يتأبط ذراع صهره كما لو أنه يعتز به .. ولفت صهر يورتالان ، أنظار بيت العروس بجمال طلعته وثيابه الفخمة ومرحه .. لاسيما عندما جلس يتحدث إليهم كما لو أنه يعرفهم منذ زمن بعيد .. أما زوجته ـــ أي ابنة يورتالان ـــ فقد كانت جميلة هي الاخرى ، وترتدي ثوبا رائعا ، وتنتعل حذاء عاليا .. وكأنها من بنات المدينة تماما ..

لم تخجل « كازالباشيفا » من الضيوف أبدا .. فقد كانت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هي الاخرى مع زوجها وأولادها في ثياب جديدة.. كما كانت قد أعدت لهم طعاما لذيذا.. وكان عندها بالاضافة الى ذلك نبيذ معتق.. ولما كان يورتالان يدرك جيدا أن كل تلك الحفاوة هي من أجله، فقد كان سعيدا تماما.. ولم يكن يكف عن ممازحة « كازالباشيف » طوال السهرة.

كانت أم سيفدا تراقب كل تصرفات ابنتها بحذر شديد، إذ كانت تخشى أن تخطىء الصبية في تصرف ما، فيسجل عليها يورتالان ذلك، لذا فقد كانت تلاحقها بتوجيهاتها: سيفدا.. صبي لعمك الحساء.. سيفدا قدمي له الدجاج.. سيفدا.. اسأليه عما اذا كان يريد بصلة.. بينما كان يورتالان يتأمل كنته بين حين وآخر بكثير من الاعجاب.. ويلاطفها بكلمات طيبة.. أما الطعام فكان قد أعجبه تماما.. فأكل وشرب كثيرا.. ولما قدمت له كازالباشيفا صحن الحلوى ابتسم وقال: كل هذا الذوق يا أم سيفدا.؟

لم يحدد يورتالان في تلك الزيارة موعد العرس، بل اكتفى بالقول بانه قد أتى ليطلب يد سيفدا لابنه ستويكو... وان ذلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يشرفه، ويسعده.. واكتفى أهل سيفدا بذلك.. بل ابتهجوا به أيما ابتهاج.. بيد أنه ما ان انفضت الزيارة، وأوى كل من كازالباشيف وزوجته الى غرفة نوميهما، حتى بدأ كازالباشيف يحدث زوجته بهمه الذي يتعلق بمصاريف العرس، لكنه قال لها قبل أن ينام انه سيبيع شيئا من الأرض لتأمين بعض الدراهم..

وفي اليوم الثاني صباحا.. عندما جلست أم سيفدا مع زوجها في المطبخ، قالت له: اسمع.. يجب ان نضحي قدر استطاعتنا.. فنحن نزوج ابنتنا الوحيدة والغالية علينا.. ولانريدها أن تخجل أمام هؤلاء..

فأجابها كازالباشيف: ولماذا تخجل ؟.. انها ابنتي.. كما هي ابنتك.. وسأحاول ألا أدعها تخجل أبدا.

وبينما هما يتحدثان اذ بيورتالان نفسه أمام باب المطبخ.. فهبت كازالباشيفا من مكانها لترحب به.. بينما كان يورتالان يتمتم قائلا:

ـــ لاتؤاخذوني.. أتيت دونما خبر.

فأجابته كازالباشيفا:

ـــ ولماذا الخبر..؟.. البيت بيتك.. لقد أصبحنا أقرباء..؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ونهض كازالباشيف بدوره ليحيي ضيفه قائلا :

ـ تفضل .. تفضل .. افطر معنا ..

ـ أما بالنسبة للفطور فانني قد أكلت قبلكم .. بيد انني أتيت لتحديد موعد العرس .. فما رأيكم في أن يكون يوم الاحد القادم ؟ .

فتدخلت زوجة كازالباشيف قائلة :

ـ فليكن .. يوم الاحد القادم .. كما تريد ..

فأضاف يورتالان :

ـ مارأيكم ايضا في ألا نبذر كثيرا من المال .. ان كان نحن أم أنتم ..

ابتسم والد سيفدا ، وقد افرحه ذلك ، وقال موجها كلامه لزوجته :

ـ اسمعي .. ماذا يقول الناس العقلاء .. ثم التفت الى ضيفه وقال .. هذا ماافكر به انا ايضا .. لماذا التبذير ؟

قال يورتالان :

ـ سوف نحتفل في الكنيسة .. وسيسافر العروسان الى صوفيا لقضاء اسبوع عسل ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وافق كازالباشيف على ذلك، كما وافقت كازالباشيفا.. وجلس يورتالان معهم قليلا.. ثم تمنى لهم التوفيق والصحة.. ونهض.. وانصرف.

كانت سيفدا تعيش كما لو انها في حلم، فقد اسعدها الى حد لم تكن تتصوره حديث أهل القرية عن خطوبتها، وعندما كانت الجارات تسألنها عن صحة النبأ، كانت « سيفدا » تجيبهن قائلة: ولم لا.. ان العم يورتالان شديد الاعجاب بي، وقد قال أمام أبي وأمي انه سعيد بأن تكون له كنة مثلي، سوف نقضي شهر العسل في صوفيا.. وكانت معظم الجارات يفرحن لفرحها، فهي الفتاة الجميلة الطيبة واللطيفة مع الجميع، وكن يتمنين لبناتهن أزواجا مثل « ستويكو » فهو وسيم وغني وعاقل في آن واحد.. أما أم سيفدا فقد كانت تعتني بهندامها وتتبختر في الزقاق، كما لو انها تريد أن تقول لصديقاتها: لقد اصبحنا انسباء يورتالان..

عندما عادت « سيفدا » من صوفيا، حيث قضت هي وعريسها ستويكو سبعة أيام تحدثت لامها وصديقاتها عن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العجائب التي رأتها هناك، ومما قالته لهن انها لم تكن تعرف في صوفيا الليل من النهار.. وان « بانيو » ابن عم زوجها ستويكو — وهو طالب حقوق يدرس في العاصمة لم يترك مكانا في صوفيا إلا وصحبهم إليه، وبدأ أقارب « يورتالان » وأقارب « كازالباشيف » بدعوة العروسين الى حفلات الغذاء والعشاء، كما دعتهما أم العروس ودعت معهما أهل العريس، وتفننت في تقديم العديد من ألوان الطعام والحساء والحلوى، حتى ان يورتالان قال لزوجته أمام الجميع: تعلمي منها.. وكان لهذه الجملة أعمق الأثر في نفس أم سيفدا.. وعندما كانت تدور في تلك الحفلات أحاديث شتى عن الزواج والمحبة والتفاهم.. كانت كازالباشيفا تثير في كل مرة موضوع الحسد فتردد قولها، وهي ترمق العروسين بسعادة: كنت أخشى عليهما من الحسد.. أما ابنتها «سيفدا».. فكانت تجيبها بقولها: الذي يحسد سيلقى جزاءه العادل من الرب.. اننا لانؤذي أحدا والرب يعرف هذا..

ولم تكن دعوة « يورتالان » رغم بخله الشديد بالدعوة المتواضعة، فقد اضطر ان ينفق من أجلها مبلغا ليس بالقليل من المال، وجاء كل أهل القرية ليأكلوا عنده.. ولكن كل ذلك كان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يجري في حدود الرسميات ، اذ انهم كانوا يدخلون ويحيون ويأكلون ثم ينصرفون .. أما يورتالان فقد كان يجاملهم بكلمات طيبة ولكن مختصرة .. ولما كانوا يعرفون طبعه فانهم لم يكونوا يتوقعون اكثر من ذلك ..

عندما انتهت الحفلات ، شمرت سيفدا عن ساعديها لتنظف دار يورتالان ، ولتثبت لعمها انها كنة نشيطة ، ولم تكلف حماتها نفسها عناء مساعدتها ، بل جلست ترمقها وتراقبها ، ولشد ماكانت دهشة الحماة عظيمة ، عندما دخلت كنتها سيفدا الى غرفتها ، لتهتم حتى بفراشها ، فتغسل الشراشف ، وأغطية المخدات ، وأرض الغرفة وما ان حل المساء وعاد يورتالان الى البيت حتى فوجىء بحالة جديدة ، وبنظافة جديدة ، وأدرك ان كنته (رائعة) فعلا ، لكنه لم يقل لها شكرا ، بل جلس الى المائدة ، ونظر اليها نظرة جدية وقال :

Telegram:@mbooks90

ـــ لايكفي ان تكون الكنة لطيفة ، بل يجب أن تكون حريصة أيضا على مال وسمعة زوجها وأهله ، وألا تتحدث الى الاخرين بما يجري في بيتهم .

نظرت اليه « سيفدا » بطيبة وقالت :

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ طبعا ياعمي .. طبعا ..

وأردف يورتالان قائلا :

ـ هذا من ناحية .. ومن ناحية أخرى .. فانني أريدكما أنت وستويكو ان تظهرا أمام الناس بمظهر لائق، أريدكما ان تلبسا ألبسة جيدة .. فالناس في أيامنا كانوا يحترمون الانسان لعقله وليس للباسه .. أما الآن .. في أيامكم. فالأمر على العكس تماما .. انهم يحترمونه للباسه وليس لعقله ..

أسرعت سيفدا بالموافقة، وتابع يورتالان موجها حديثه اليها :

ـ أما الضيوف .. فانني والحق يقال لأحبهم .. ما عدا الأكابر والوجهاء منهم .. فالضيف في رأيي هو مثل الكلب الغريب تطعمينه ثم يخرج ليعوي ويشتمك .

اسرعت «سيفدا» بالموافقة أيضا واكتفى العجوز بهذا القدر من الكلام .. ثم نهض وغسل يديه، وتوجه الى الغرفة أما سيفدا فإنها بعد أن رفعت الطعام، وغسلت بعض الصحون، فانها جلست لتثبت أزرار قميص أخي زوجها «اليكسي»، ذلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصبي الصغير الذي سرعان ماتعلق بها، واصبح يلازمها أينما ذهبت، ولم يعد يطلب من أمه شيئا، وكان أبوه يقول عنه ــ سأجعل منه عالما .. كي لايعيرني الاخرون ..

وكان «يورتالان» يقصد بالآخرين أخاه «ايفان» الذي لم يكن يحبه كثيرا ولايحب ابنه «بانيو» الذي يدرس الحقوق في صوفيا، بدعوى ان «بانيو» لايحترمه كعم غني ومعروف.. كما كان يغار منهما، وينظر الى زوجته ويقول: هل تعلمين ان السيد ايفان ــ يقصد أخاه ــ يعتد بابنه .. تصوري هذا الملعون.. ترى متى سنرى نحن في بيتنا عالما ؟.. ثم يضيف: على أية حال لن يكون ذلك العالم سوى اليكسي..

وبدأت الايام تتعاقب على «سيفدا» في بيت الزوجية رتيبة متشابهة، كنس ومسح وطبخ وجلي.. وثلاث وجبات في اليوم.. وعمل كثير وكثير جدا.. حتى أنها بدأت تشعر انه لايمكن ان ينتهي أبدا.. وكان زوجها «ستويكو» قلما يمكث في البيت، فهو اما في العمل أو مع أصدقائه الشباب.. وما أن يحين موعد العشاء حتى يدخل مسرعا، ليسأل عن الطعام، ويأكل بضع لقمات ثم لايلبث أن يخرج من جديد، وتبقى «سيفدا» مع حماتها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في المطبخ، بيد أن وجود العجوز معها كان لايفيدها في شيء، فقد كانت زوجة يورتالان سيدة بطيئة جدا، قد يظن من يراها انها تشتغل، بيد ان شغلها كما كانت تقول «سيفدا» لأمها لا في العير ولا في النفير، أما «اليكسي» الصغير فكان ينكب على دفتره ليكتب وظيفته، وما ان ينهيها حتى يلبس بيجامته وينام، غير ان ما كانت تلاحظه «سيفدا» هو ان عمها «يورتالان» يظل جالسا على الاريكة يدخن سيجارة تلو اخرى، دون أن يستطيع اخفاء قلق ما كان يسيطر عليه، ولكن كنته لم تكن تعلم سر تلك الحالة وغالبا ماكانت تردها الى تقدمه في السن.

ومما لفت نظر سيفدا أيضا ان العم يورتالان لاينام أبدا، بل يظل جالسا قرب المدفأة الباردة متدثرا بعباءته السميكة، مشعلا سيجارته، محدقا في شيء ما غير موجود في الغرفة، فما كان منها إلا ان تجرأت وسألته في احدى المرات:

ـــ لماذا لاتنام يا عم ؟

فأجابها يورتالان:

ـــ اشعر بأن الليل طويل جدا ياابنتي.. وأنا شخصيا تكفيني منه ساعتان أو ثلاثة للنوم..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وحتى في النهار ، فان يورتالان كان قلما يخرج من البيت، وكان يقضي وقته في حساب أرقام يسجلها في دفتره العتيق، ثم لايلبث ان يشطبها ليعيد حسابها من جديد ، وكثيرا ماكان ينهض من مكانه ، ويتوجه نحو النافذة ، ثم يعود مسرعا كمن تذكر شيئا يريد ان يسجله في الدفتر حالا ، بيد انه قبل ان يفعل ذلك كان يشعل سيجارة ويتأمل دخانها المتصاعد في فضاء الغرفة، وكانت سيفدا تتابع ملاحظة كل ذلك ، دون أن تعرف له سببا، لتقول في سرها : رجل عجوز .. ماذا يمكن ان يفعل غير هذا ؟.. الى أن حدث وخرج يورتالان في مساء أحد الايام بقصد الذهاب الى حانة القرية ، ولشد ماكان استغراب كنته عظيما عندما تأخر كثيرا ، لكنه عندما عاد أخيرا كان يبدو مغتبطا، فظنت «سيفدا» أن ذلك بسبب الخمرة التي شمت رائحتها عندما مر بالقرب منها ، لكن يورتالان قال موجها كلامه لزوجته :

ـــ لقد أنجزت هذه الليلة عملا .. لكنني لا أدري ما اذا كنت موفقا فيه أم لا ..

فتدخلت سيفدا قائلة :

ـــ خير .. ياعم ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأردف العجوز قائلا :

ــ اشتريت أرض القس.. وغدا سوف نذهب الى البلدة كي ننهي الموضوع .

فسألته زوجته :

ــ وبكم اشتريتها ؟..

ــ اشتريتها وكفى.. ليس المبلغ كبيرا.. لكنه ليس صغيرا أيضا..

ــ وهل تخفي مقداره عني أنا زوجتك... وهذه كنتنا ليست غريبة .

ــ اشتريت الديكار بسبعة آلاف..

ــ ولكنها أرض كبيرة .

ــ نعم كبيرة.. اكثر من ثلاثين ديكارا .

فسألته سيفدا :

ــ وهل هي قريبة من أرضنا الكبيرة ياعم ؟

ــ فرمقها يورتالان معجبا بالسؤال وأجاب

ــ ملاصقة لها.. ملاصقة لها.. ان مساحة أرضنا خمسون ديكارا.. فاذا أضفت اليها الثلاثين التي اشتريتها تصبح لدي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قطعة واحدة من الارض مساحتها ثمانون ديكارا... هل ادركن الآن ياكنتي سبب سعادتي هذه الليلة ؟

كان يورتالان رجلا حريصا وجادا طوال حياته، وهكذا كان قد استطاع ان يوسع أملاكه عاما تلو الاخر، صحيح ان أباه كان فلاحا مالكا، وأنه أورث أولاده مساحة من الارض لابأس بها، وبينها تلك القطعة الكبيرة التي مساحتها خمسون ديكارا، بيد ان الورثة كانوا أربعة: يورتالان وأخوه بالاضافة الى شقيقتين.. لكن يورتالان مالبث ان اشترى حصص الثلاثة الواحدة تلو الاخرى.. وقد دفع ثمن ذلك من عرق جبينه.. ودون أي غش أو تصرف غير أخلاقي.. اذ كان يعمل آناء الليل وأطراف النهار.. يجمع السماد من القرية ويضحك منه الفلاحون، ثم ينقله الى أرضه التي كان يحرثها اكثر من مرة، ويعنى بها عنايته بعينيه، ويجني منها المواسم الغنية بين حسد واستغراب الاخرين.. اذ ان الجميع كانوا يلقبونه بحمار عمل.. لكنه لم يكن يأبه بهم.. اذ كان قد رسم لحياته خطة، وحدد لها هدفا بالتدريج، ولكن بكثير من التعب الذي تدركه زوجته جيدا.. كما انه كان قد استفاد من اشتراكه في الحرب لمدة أربع سنوات متوالية، حيث

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جمع مبلغا لابأس به من الليرات الذهبية التي اشترى بها قطعا جديدة من الاراضي التي أضافها الى ماكان عنده حتى غدا من الملاكين المرموقين في القرية، ولم يكن يورتالان بالمزارع التقليدي الذي يأبى التعرف الى أنواع جديدة من المحاصيل، فما كان يسمع بزراعة جديدة حتى كان يجربها بحماس شديد، ولكن بعد دراسة متأنية أيضا، فقد حدث في احدى المرات أن سمع بزراعة الكمون، وبلغه انها تدر ربحا وفيرا، فما كان منه إلا ان زرع أرضه الكبيرة كلها بالكمون .. فقالت له زوجته :

ــ هل جننت يارجل .. خمسون ديكارا من الكمون ؟

فأجابها يورتالان بثقة :

ــ أنا لست مجنونا ..

فقالت له زوجته :

ــ ولكن من أين تدري ان أرض قريتنا صالحة لزراعة الكمون . ؟

فرمقها باستخفاف .. وأجاب :

ــ وما هو الفرق بين أرض قريتنا والقرية المجاورة .. على كل حال فأنا انسان يحب التجربة أيضا ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـــ واذا لم تنجح التجربة ؟

ـــ واذا نجحت ..؟

وقد نجحت تجربة يورتالان في تلك السنة نجاحا باهرا وجنى منها عشرات آلاف الليفات الحلال ..

وكان يورتالان رغم غناه المعروف لاينسى أن يستغل كل فرصة ممكنة أمام الناس ليقول شيئا يعني انه ليس في الحالة التي يعرفونها عنه، وانه متعب في حياته، وان كل كدحه لايؤمن له سوى العيش المستور، ثم يهز رأسه ليردد في كل مرة :

ـــ لاتصدقوا ان المزارع يمكن ان يكون غنيا .. هذا شيء غير معقول .. إنما الأغنياء هم هؤلاء الذين يملكون الآلات .. هم التجار .. وأصحاب العلم ففي الآلات والتجارة والعلم يكمن الغنى الحقيقي .. ولكن من أين لنا أن نملك آلات أو نصبح تجارا أو نتحول الى علماء .. هذه هي القضية ..

وكان في اعتقاد يورتالان ان الانسان الذي يرغب في التجارة يجب أن يسافر الى المدينة، ولكن الحياة في المدينة كانت تبدو له معقدة، وهو في الاصل يخاف المدينة خوفا شديدا، ويخشى التعامل مع أهلها .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أما بالنسبة للعلم، فهذه مسألة لم يكن في وسعه ان يفكر فيها وهو في تلك السن، بقيت الآلات، وقد كان يغريه دائما موضوع شراء درّاسة، ولكنه كان يعرف ان عملها موسمي، وأنه اذا حدث وتعطلت فانه سيضيع موسما كاملا، وهذا مر وعويص، ولكنه رغم ذلك بدأ يتقصد اللقاء بغاتيا بوبوف، ودعوته الى الحانة ليسقيه معه كأسا من الراكيا ويستوضحه بعض المعلومات عن (الدراسة) اذ كان يورتالان يعتقد ان (غاتيا بوبوف) وحده هو الذي يستطيع أن يفيده في هذا الموضوع، ذلك لانه رجل اجتماعي واسع العلاقات بالناس، وله اكثر من صديق في قرية اخرى يملك (دراسة) ولديه معلومات مفصلة عن كل ذلك، وبامكانه اذا تم تعاون معه ان يحقق أمنية طالما راودت أحلامه.

أما غاتيا بوبوف فقد كان يقول له:

ــ سوف أتولى أنا هذا الموضوع، ما عليك أنت إلا أن تؤمن المبلغ.. ان كل شيء سوف يسير كما تريد.. ان لم يكن أفضل

كانت سيفدا تنتظر قدوم العيد كما لو أنها طفلة، اذ كانت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعلم ان النساء في الأعياد يسترحن قليلا من العمل، ويزور بعضهن البعض، وأن بوسعها آنذاك أن تزور أمها، وتلتقي بصديقاتها، وهذا شيء ممتع حقا، كادت سيفدا أن تنساه في غمرة انهماكها في أعمال بيت يورتالان الكثيرة، وحتى في الليل بعد أن كانت سيفدا تقوم بغسل صحون طعام العشاء في المطبخ، وتعود الى غرفة الجلوس، كان عليها ان تراجع وظائف اليكسي الصغير وتصغي بانتباه الى ماحفظه من دروس، حتى اذا ماانتهت من ذلك أيضا، كانت لاتستحي من الدخول الى غرفتها مادام يورتالان وزوجته قاعدين، وكثيرا ماكانا يتأخران في السهرة، دون أن يتكلما شيئا، بيد ان «سيفدا» كانت قد تعودت بعض الشيء على تحمل ذلك الصمت الغريب شاغلة نفسها بالتفكير بزوجها «ستويكو» الذي كان يقضي معظم سهراته مع أصحابه خارج البيت، لكنه عندما كان يعود، كان ينظر اليها بعينين يتوهج فيهما بريق الحب، ثم يدعي أمام والديه انه متعب ويريد ان ينام، وكان العجوزان يفهمان قصده، فينهض «يورتالان» متثاقلا ويتوجه الى غرفته، ثم تتبعه زوجته ومعها «اليكسي».. آنذاك فقط كان ستويكو يغمز بعينيه، ويقول لسيفدا:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـــ هيا يجب أن ننام ..

وما ان تستلقي سيفدا الى جانب زوجها حتى تشعر أنها أسعد انسانة في هذا العالم، بيد أنه كثيرا ماكان يحاول أن يروي لها ماشاهده أو سمعه في القرية، مشيرا الى حقارة بعض الناس، لكن سيفدا كانت تسد له فمه براحة كفها قائلة:

ـــ هذه مواضيع لاتهمنا أنا وأنت ... أفما تحبني ؟..

فيجيبها ستويكو قائلا:

ـــ كثيرا .. ياسيفدا

فتبتسم سيفدا وتقول:

ـــ هذا يكفي .. يكفيني ويغمرني بالسعادة .. وأخيرا أتى العيد، وأتت معه مناسبات سعيدة، من بينها فرصة فرحت بها «سيفدا» كل الفرح .. ذلك أن قريبا ليورتالان كان سيتزوج خلال العيد .. وقد أتى أبو العريس ليدعوا عائلة يورتالان كلها الى عرس ابنه، ولم يستطع «يورتالان» ان يعتذر بأي شكل من الاشكال، لاسيما بعد أن قال له الرجل: اننا لانريد منك هدية، بل يكفينا، وأنت عميد أسرتنا ووجيه قريتنا أن تشرف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العرس بحضورك.. فما كان من يورتالان عندما سمع هذا الكلام إلا ان وعد قريبه بتلبية الدعوة.

مساء يوم العرس، خرج يورتالان وزوجته، مع ابنيه وكنته، وقد ارتدوا أجمل ثيابهم، قاصدين بيت العريس، وكانت تلك أول مرة تخرج بها سيفدا، بصحبة زوجها «ستويكو» الى حفلة عامة وقد كانت سعيدة بذلك الى درجة لاتوصف. لاسيما عندما وصلوا الى مكان العرس، وخرج أهل العريس لاستقبالهم باحترام شديد، ثم قادوهم الى صدر القاعة وأجلسوهم على أرائك ناعمة من المخمل، أما يورتالان فكانوا قد أعدوا له كرسيا خاصا به، يشبه كرسي العريس نفسه، فما كان من يورتالان بعد أن ألقى التحية على من حوله من المدعوين إلا ان جلس وراح يداعب شاربيه باعتداد. وما هي إلا لحظات حتى علا صوت والد العريس مرحبا بيورتالان بأبيات من الشعر، ثم رجاه أن يفتتح الحفلة بمطلع أغنية يحفظها، فاضطرب يورتالان قليلا، وهو الرجل المعروف بوقاره، وقال لوالد العريس:

Telegram:@mbooks90

ـــ أنا في حياتي ماغنيت..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فقال له أحد المدعوين :

ـــ ولكن هذه مناسبة .. عرس ابن ابن عمك ..

ثم نهض الرجل وقدم ليورتالان كأسا من النبيذ، وهو يقول :

ـــ سنشرب .. وسنغني .. أنت في عرس ..

خجل يورتالان ، ونهض واقفا ، ورفع الكأس وشرب نخب العريس، ثم جلس باحتشام، وهو يفكر بما يجب أن يفعله، وعاود والد العريس طلبه ، فقال له يورتالان مبتسما :

ـــ اذا كان لابد .. فانني أحفظ مقطعا من نشيد كنا نغنيه في الجبهة !

وصفق المدعوون، وهم يرهفون أسماعهم لما سينشده يورتالان الذي أنشد محرجا :

لانريد ياأماه

أن ندفع الضريبة للسلطان

لكننا ننتظر

أن تخفق الراية

على جبال البلقان ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

واعتبر الموسيقيون ذلك المقطع من النشيد اعلانا عن بدء الاحتفال، واطلقوا الأعنة لآلاتهم التي عزفوا عليها موسيقا شعبية راقصة، فنهض الشباب والصبايا من أماكنهم وتجمعوا في فناء الدار، يرقصون على ايقاع ذلك اللحن مختلف الدبكات البلغارية الجميلة، ليزول عنهم الشعور ببرودة الطقس، وغنت احداهن بصوتها الرخيم أغنية «مار .. ماريكي .. ياجارتنا ..» وحمي وطيس الرقص الى أن تصبب العرق من أجساد الراقصين .. أما «سيفدا» فقد كانت تراقب ما يجري حولها، دون أن تتجرأ على المشاركة في الرقص والغناء بسبب وجود عمها «يورتالان» .. غير أن النسوة اللواتي لاحظن ذلك مالبثن ان أصررن عليها بالنهوض الى «الدبكة» مع زوجها «ستويكو» .. لكنها لم تستجب لدعوتهن قبل سماع صوت يورتالان وهو يقول لها :

— هيا ياسيفدا .. ان العرس عرسنا ويجب أن نشارك فيه ..

ونهضت «سيفدا» وأمسكت بيد ستويكو .. وصدحت الموسيقا من جديد، ولحق بهما يورتالان نفسه .. ليقف على رأس الدبكة ويجامل أهل العريس بعدة خطوات .. ثم ليعود الى مكانه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بين تصفيق الجميع وتهليلهم، وفجأة انبعث صوت مزمار من احدى زوايا الدار... وأرهف المدعوون أسماعهم لينصتوا الى لحن حزين لاغنية قديمة.. ما لبث ان رافقه العجوز «كوستا» بصوته الجميل.. اذ انطلق يغني:

يجدر بنا ان نتذكر كيتا

كيتا الجميلة

كيتا التي لم تسمع نصيحة أمها

كيتا التي خطفها الاتراك

كانت الاغنية رائعة حقا، فاستحوذت على انتباه الجميع، وما ان فرغ «كوستا» من ادائها.. حتى صفق له يورتالان، بحماس شديد.. والتفت الى كنته «سيفدا» قائلا:

ـ وأنت ياسيفدا ماذا ستغنين..

دهشت سيفدا من سؤال عمها، وارتبكت، وأجابته بصوت منخفض:

ـ لا أدري..

فقال لها يورتالان:

ـ يجب ان تغني شيئا..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت سيفدا تعرف أغنيات كثيرة، وكان لها صوت عذب وعذب... فما كان منها إلا ان نهضت لتغني هذه الاغنية التي أعجبت المدعوين اكثر من كل الاغاني الاخرى..

«غروزدانكا» الواقفة أمام الباب..
غروزدانكا التي ترهف سمعها
الى صوت موسيقا قادمة من بعيد
غروزدانكا العاشقة..
دخلت الى البيت
وقالت لامها:
ـــ هذا صوت شبّابة حبيبي الثائر سوف أذهب لاراه
وان كان هو
فانني سأبقى معه الى الأبد

كان صوت «سيفدا».. دافئا وقويا وحلوا.. وكان زوجها «ستويكو» يتأملها ويستمع الى غنائها باعتداد.. لكنها ما فرغت.. حتى نهض يورتالان من مكانه.. وقال بصوت عال مخاطبا والد العريس:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ مبروك .. وألف مبروك .. وبالرفاه والبنين ..

ثم التفت الى زوجته ، وقال لها :

ـ هيا نودع الجماعة ونذهب .. الصغير يجب أن ينام ..

ولاحظ «ستويكو» ذلك ، فغمز «سيفدا» كي تستعد للذهاب .. وهنأوا أهل العريس من جديد ، وودعوهم وخرجوا قاصدين بيتهم ..

وعندما دخلت سيفدا مع زوجها الى غرفتهما .. وجلسا وحيدين قال لها ستويكو :

ـ لم اكن أعلم من قبل ان لك مثل هذا الصوت القوي الجميل .. لماذا لم تقولي لي ذلك ؟..

فأجابته سيفدا :

ـ وهل قلت لي أنت كل شيء عما تجيده أو لاتجيده ..؟

ـ نعم .. لقد قلت لك كل شيء ..

واقترب «ستويكو» من زوجته ، وطبع على خدها قبلة حارة وهو يغمغم :

ـ نعم .. كل شيء .. كل شيء .. ما عدا ..

ـ ما عدا .. ماذا ؟..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

انتبه «ستويكو» .. الى نفسه وقال :

ــ لاشيء .. لاشيء ..

وأطرق صامتا يتذكر قصة الصبي الذي قتله أبوه .. ودفناه معا في الحقل .. فلاحظت «سيفدا» ان هنالك شيئا هاما في حياة زوجها لم تطلع عليه .. فما كان منها إلا ان ألحت .. وألحت .. حتى روى لها «ستويكو» تلك القصة الرهيبة ..

عندما سمعت «سيفدا» بقصة مقتل الصبي ــ ابن استاروف ــ بدأت تراه في أحلامها بقميصه المقلم وقدميه الحافيتين ، كما وصفه لها «ستويكو» فتنهض من نومها مذعورة ، وتتأمل زوجها النائم الى جانبها في الفراش وتبكي ...

كانت نفس سيفدا تحدثها بأن الجريمة لابد ان تنكشف في يوم من الأيام واذا ماحدث ذلك فانها ستفقد حبيبها ، بيد أنها كانت تتذكر أم الصبي أيضا .. فهي تعرفها جيدا ... فتتأوه وتقول في سرها : ماذنب المسكينة حتى تفقد ابنها ؟

أما عندما كانت سيفدا تذهب الى الحقل مع الجارات ، فقد كانت تخشى ان تنظر باتجاه القبر الذي دفن فيه زوجها وأبوه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصبي القتيل كي لايكتشف أحد الجريمة.. لأن ذلك سيمحق سعادتها بكل تأكيد.. غير ان أعمال الصيف الكثيرة كانت لاتلبث ان تلهيها عن همها الجديد، لاسيما وانها كانت تشتغل في الحقل مع الارملة دوبرا وبناتها اللواتي تعود يورتالان أن يستأجرهن كل عام.. وكان يقول لكنته:

ـــ اسمعي ياسيفدا جيدا.. انهن لن يشتغلن إلا اذا رأينك تشتغلين.. فما عليك إلا ان تكوني قدوة لهن.. هل فهمت..؟

كانت «سيفدا» تهز رأسها دون جواب.. لكن يورتالان كان يؤكد طلبه في كل مرة بقوله: اياك أن تتركيهن على مزاجهن..

ولما كانت «سيفدا» لاتستطيع ان تخالف تعليمات عمها «يورتالان» فقد كانت تتصرف مع الارملة «دوبرا» وبناتها بحزم وجدية... بيد ان «دوبرا» الذكية كانت تغفر لسيفدا تصرفاتها لانها كانت تقدر جيدا ان الذي طلب ذلك هو يورتالان.

وحدث ان أتت أخت ستويكو «ميكا» من القرية المجاورة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مع طفلها الصغير لزيارة أهلها، ففرحت بها سيفدا كل الفرح، ولم تقصر في اكرامها وتدليلها.. لكن «ميكا» كانت تتعالى عليها دائما، وتأبى إلا ان تسمعها كلمات جارحة، تريد ان تقول لها ان عائلة «سيفدا» ليست في مستوى عائلة يورتالان.. وكانت الكنة المسكينة تتحمل كل ذلك اكراما لزوجها، وتأبى عليها نفسها ان تنقل اليه أية كلمة مما تحكيه أخته، لكنها سألته مرة:

ـــ لماذا تغلق أمك وأختك على نفسيهما الباب لتتحدثا بصوت منخفض ساعات طويلة ؟

فأجابها ستويكو بلهجة عادية:

ـــ جاءت كي تطلب مساعدة من امها..

ـــ وهل يحتاج ذلك الى كل هذه الوشوشة ؟

فأجابها ستويكو:

ـــ عندنا نحن.. يحتاج.. ألا تعرفين أبي..؟

كان «ستويكو» صريحا مع زوجته «سيفدا» فان رجلا كأبيه ـــ أي مثل يورتالان ـــ لايحتمل أن يرى ابنته «ميكا» الزائرة عنده جالسة دون عمل وقد كان يقول لزوجته:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـــ صحيح انها ابنتنا .. ولامانع يحول دون زيارتها لنا .. لكنها لماذا لاتساعدنا في شيء .. كيف لاتستحي من البقاء في الغرفة طوال النهار .؟

أما زوجته فقد كانت تجيبه :

ـــ دع المسكينة في حالها .. ان طفلها صعب .. يجب أن تعتني به .. كان كل شيء يجري في بيت يورتالان محتملا بالنسبة لسيفدا التي كانت تشتغل داخل البيت وخارجه ، دون ان تستريح لحظة واحدة ، بيد ان ما آلمها في أحد الايام هو سؤال ميكا لها :

ـــ لماذا لم تنجبي حتى الآن يازوجة أخي ؟

فأجابتها سيفدا :

ـــ سوف أنجب عندما يريد الله ..

فقالت لها ميكا :

ـــ يجب أن تنجبي .. يجب أن تنجبي .. ان بيت أبي وأراضيه بحاجة الى عدد كبير من الشغيلة أمثالك ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سكتت «سيفدا» قليلا .. ثم قالت والدمع يترقرق في عينيها :

ـــ لم يمض على زواجنا عام .. وأنا لست مستعجلة ..

فقطبت «ميكا» مابين حاجبيها وأجابت :

ـــ قد يكون أخي ستويكو مستعجلا ..

عندما سمعت سيفدا كل ذلك الكلام الجارح من أخت ستويكو ، أسرعت في غسل الصحون التي كانت بين أيديها، وارتدت ملابسها ، وقالت لحماتها :

ـــ أريد ان أذهب لزيارة أمي قليلا .. سمعت انها مريضة ..

فقالت لها العجوز :

ـــ ولكن عودي سريعا .. وإلا فان عمك سوف يغضب ..

خرجت «سيفدا» من البيت مرتبكة حزينة ، ولما بلغت بيت أهلها ، ورأتها أمها سألتها عما بها ، فانفجرت باكية ، وهي تقول :

ـــ لم أعد احتمل ياأماه .. لم أعد احتمل .. انني متعبة .. متعبة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ياماما .. انت لاتعرفين كم اشتغل .. وكل هذا بسيط .. فأنا لاأزال صبية .. لكنهم بدأوا يعيرونني لانني لم أنجب طفلا ..

انصتت «كازالباشكا» الى ابنتها «سيفدا» بانتباه شديد .. وتذكرت كيف ان صديقتها «جورجينا» كانت قد حذرتها من تزويج ابنتها لبيت يورتالان .. لكنها استطاعت ان تحافظ على رباطة جأشها ، وأن تتظاهر أمام ابنتها بأن الموضوع بسيط للغاية ، ولايحتاج الى كل ذلك الانفعال ، وقالت لها :

ـ لا .. لا سيفدا .. لا ياابنتي .... لقد عهدتك دائما عاقلة ومدبرة .. فهل أصدق عيني الآن .. لماذا تبكين ياسيفدا ، غدا سوف تنجبين ياابنتي .. وستقرين عينا باكثر من طفل وطفلة .. انهم يريدون لابنهم نسلا ،، وهذا من حقهم .. قومي اغسلي وجهك .. كي لايراك أبوك باكية .. أنا التي ستحل لك هذه المشكلة البسيطة ..

مسحت «سيفدا» دموعها .. وقالت لامها :

ـ ان هؤلاء القوم ياأمي ليسوا أناسا مثلنا .. أنت لاتعرفينهم .. واذا كانت ابنتهم «ميكا» قد عيرتني اليوم .. فستتبعها أمها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غدا .. ثم أبوها .. أنت لاتعرفين كما أعرف انا من هو يورتالان .. يا له من خسيس ..

هزت «كازالباشكا» رأسها بألم وقالت لابنتها :

ـــ حسنا .. سوف تراك العمة «بيترا» .. أنت تعرفين أنها تعالج العرائس اللواتي يتأخر حملهن ..

برقت عينا «سيفدا» بالأمل، عندما سمعت باسم العمة «بيترا» .. وقالت لأمها :

ـــ هيا ياأمي .. هيا اذهبي إليها فورا كي تأتي وتراني ..

وافقت كازالباشكا على طلب ابنتها، وخرجت من البيت لتغيب قليلا، ثم تعود بصحبة العمة بيترا التي كانت تعيش بالقرب منهم .. وما أن رأت بيترا العروس حتى سلمت عليها بلهفة .. اذ كانت تحبها . ثم فحصتها وضغطت على بطنها ضغطا شديدا، وسألتها بعض الاسئلة ثم قالت لها :

ـــ ما بك شيء .. سوف أحضر لك شرابا من مغلي بعض الأعشاب والجذور المنشطة .. وستحملين بمشيئة الرب ..

منذ ذلك اليوم بدأت «سيفدا» بالتردد بين يوم وآخر الى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بيت أمها لتأخذ زجاجة بعد أخرى من شراب أسود مر المذاق.. كانت تداوم على شربه في بيت أهل زوجها سرا.. وهي تدعو الله أن يرزقها ولدا جميلا كأبيه ستويكو.

كانت سيفدا تنام وتستيقظ على أمل الحمل.. وفي احدى المرات بينما كانت في الحقل مع زوجها.. شعرت بمغص شديد في أسفل بطنها.. وبرغبة بالتقيؤ.. فما كان منها إلا ان نادت زوجها.. وقالت له بفرح شديد:

ـــ وأخيرا.. ياستويكو.. وأخيرا..

ـــ ماذا ياسيفدا ؟

ـــ ألم تفهم ؟

سألها ستويكو بلهفة:

ـــ حمل ؟

ـــ نعم حمل.

فما كان من الزوج إلا أن ضم زوجته الى صدره، وهو يقول لها:

ـــ كفي عن العمل فورا، واستريحي هنا تحت الشجرة.. ريثما أنهي شغلي ونعود الى البيت..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وما هي إلا ساعة من الزمن حتى تأبط «ستويكو» ذراع «سيفدا» وقادها الى القرية.. ولما وصلا الى البيت، رمقهما «يورتالان» بنظرة ساخطة، وكأنه يريد أن يفهم لماذا عادا مبكرا ؟.. لكنه لم يقل لهما شيئا..

رغبت «سيفدا» في أن تصرخ في وجه حميها: ما لك غاضب.. أنا حامل، بيد أنها لم تتجرأ.. أما حماتها «يورتالانكا» فقد كانت عابسة هي الأخرى دونما سبب.. لكن «ستويكو» غمز زوجته بعينه، وكأنه يريد أن يقول لها لاتهتمي بهما..

وسكتت «سيفدا» وجلست تتحدث مع اليكسي، الصغير الذي كان يحبها حبا جما، ثم عرضت عليه ان تصطحبه الى بيت أهلها، وسألت زوجها بصوت مرتفع تقصدت أن تسمعه حماتها:

ـــ ستويكو.. سأذهب قليلا الى بيت أهلي، كي اسأل أمي عن سبب هذا المغص الذي اشعر به، علها تعطيني شيئا يسكن آلامي..

ما ان سمعت «يورتالانكا» ذلك حتى رمقت كنتها شزرا،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقالت : وهل يستوجب هذا الذهاب الى بيت أهلك .. اغلي قليلا من النعنع واشربيه واسكتي .. فلم يتمالك ستويكو نفسه، فقال لزوجته بلهجة حاسمة :

ــ خذي معك «اليكسي» واشتري له شيئا من السكاكر في الطريق ..

ونهض اليكسي فرحا، وطلب من أبيه «ليفا» فهز «يورتالان» الذي كان يحب الصغير كثيرا، وقال له :

ــ هل تظن أيها الارنب ان عندي مطبعة لليفات ؟

لكنه مالبث ان مد يده الى جزدانه وأخرج ليفا واحدة، أعطاها لاليكسي قائلا :

ــ اشتر بها شيئا مفيدا .. واياك ان تتأخر .

أدركت سيفدا ان الكلام موجه إليها وان المطلوب منها ألا تتأخر عند أمها، لكنها تجاهلت كل ذلك، وأخذت الصبي الصغير من يده، وخرجت، وما ان وصلت الى بيت أهلها، حتى تركت الصبي في باحة الدار يأكل السكاكر، ويلعب، وجلست قرب أمها لتحدثها عن ذلك المغص الشديد الذي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شعرت به في الحقل، وعن شعورها بالرغبة في الاقياء، فاستبشرت كازالباشكا خيرا، وقالت لابنتها:

ـــ انتظري يااابنتي عدة أيام اخرى.. ان شاء الرب خير..

مضى شهر من الزمن، وسيفدا تشعر بآلام في مواضع مختلفة من بطنها، بيد انها مالبثت ان تأكدت من انها متوهمة، وأنها غير حامل، فاسقط في يدها، وبكت في السر كثيرا، الى ان قالت لها أمها ذات يوم:

ـــ اسمعي ياسيفدا.. تعالي أنت وزوجك يوم الأحد القادم لزيارتنا.. قولي أمام أهله انكما مدعوان عندنا على الغداء.. وسنذهب الى صخرة السيدة العذراء في «كوزلوفيتش».. يقولون انها صخرة مباركة.. وانه لم تقصدها امرأة راغبة في الحمل إلا وحملت.. سوف تبتهلين هنالك للسيدة العذراء كي تمن عليك بطفل..

هذا ماسمعته من زوجة القس.. سوف نجرب..

فرحت سيفدا بذلك الخبر، وحدثت به زوجها، فوافق كل الموافقة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في صبيحة يوم الاحد .. وبعد ان كنست «سيفدا» أرض الدار .. وحلبت البقرة، ووضعت طعام الفطور، قال لها زوجها أمام أمه وأبيه .. وهم حول المائدة :

ـــ سوف نذهب اليوم .. أنا وأنت لزيارة أمك .. انها مريضة .. ويجب ان أراها .. ستقول ان صهري لم يسأل عني ..

حدج يورتالان ابنه بنظرة اعتراض لكن ستويكو تابع مخاطبا زوجته :

ـــ كان يجب على أمي أيضا ان تزورها .. فهما صديقتان .. تحب احداهما الاخرى .. وان هذا سوف يتم حتما .. اذا ذهبنا اليوم أنا وأنت ورأيناها ماتزال مريضة !..

كانت «سيفدا» سرعان ماتفهم كل مايقوله زوجها .. وكانت تتجنب ان تتحدث معه أمام أمه وأبيه بما قد يزعجهما، لذا فانها تظاهرت بالانصياع لرغبة زوجها كما لو انها لاتعلم بأمر ذهابهما لزيارة أمها شيئا، وقالت لستويكو :

ـــ كما تريد ..

لم يتفوه «يورتالان» بأية كلمة بل اكتفى بأن هز رأسه، وقال لزوجته :

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـــ أنا شخصيا، وان كنت احترم يوم الاحد فانني لا اعتبره يوم كسل..

أدرك «ستويكو» ماأراد ان يقوله أبوه، بيد أنه صمت كعادته، وقال موجها كلامه لامه:

ـــ رأيي ان يبقى «اليكسي» عندك، ان حماتي مريضة، وليس من داع لاصطحاب أخي الصغير معنا..

بدأ النزق واضحا على وجه يورتالانكا التي تظاهرت بدورها انها لم تنتبه الى ماقاله ابنها، بل سألت زوجها بلهجة غاضبة:

ـــ هل شبعت ؟

هز «يورتالان» رأسه وقال:

ـــ لم اشبع.. ولكن يجب أن أشبع.. ان سيفدا مستعجلة وترغب في لم الصحون.

هذه المرة لم تستطع «سيفدا» ان تضبط أعصابها، بيد انها أدارت لسانها في فمها سبع مرات قبل ان تقول لعمها:

ـــ لماذا أنت هكذا ياعمي..؟ ابنتك «ميكا» اذا سمعت ان أمها مريضة.. ألن تأتي لزيارتها..؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رمق يورتالان كنته متأففا وقال :

ــ هل منعك أحد من الذهاب لزيارة أمك ؟ ثم لاتنسي ان تسلمي لي على أمك ..

وما هي إلا نصف ساعة من الزمن حتى خرج «ستويكو» وزوجته «سيفدا» من البيت مسرعين ، وهما يشعران بانهما قد اجتازا أول مرحلة في طريقهما الى تلك الصخرة البعيدة ..

ولما وصل الاثنان الى بيت «كازالباشكا» ــ أم سيفدا ــ استقبلتهما العجوز مغتبطة ، وقالت لهما :

ــ اعتقد انه ليس من داع للجلوس ، هيا نستأجر سيارة الى سفح الجبل .. اليوم هو (الاحد) .. وهنالك قرب الصخرة كنيسة يؤمها الكثيرون من أهالي القرى المجاورة ..

كان ستويكو قد أعد للأمر عدته ، فاستأجر سلفا سيارة المعلم «ديمتري» الذي كان ينتظرهم في ميدان القرية ، وما هي إلا دقائق معدودات حتى انطلقت بهم السيارة باتجاه الجبل البعيد ، وهبت على وجه «سيفدا» المهموم أنسام منعشة ، وقالت لها أمها :

لتشملك العذراء بعطفها يابنية .. أجابها المعلم «ديمتري» الذي كان متدينا هو الآخر :

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـــ السيدة العذراء .. لاترد من يقصدها خائبا .. فعلى بركة الرب مهما كانت نيتكم .. فأنتم أناس طيبون وتستحقون كل خير ..

لم يكن بوسع السيارة ان تصعد الى أعلى الجبل، اذ ليس من طريق معبدة توصل الى الكنيسة، لذا فقد نزل الثلاثة من السيارة، وقال لهم المعلم دمتري :

Telegram:@mbooks90

ـــ أما أنا فانني سأنام داخل السيارة، ريثما تعودون ولا أظن انكم ستتأخرون اكثر من ساعتين .

كان تسلق الجبل صعبا على العجوز «كازالباشكا» لكنها كانت مستعدة لاقتحام البحر ان وجب ذلك في سبيل تحقيق أمنية ابنتها الحبيبة، أما ستويكو فكان ينظر الى زوجته بين حين وآخر نظرة تنم عن حب عميق دون أن يكف عن ممازحتها فقد قال لها مبتسما :

ـــ هيا اسرعي .. اغتنمي الفرصة .. قبل أن تحملي وتعجزي عن تسلق الجبال !

وعلقت الحماة على مزاح صهرها بقولها :

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ لتسمع كلامك السيدة العذراء.. ولتحقق لك أمانيك..

لما وصل الثلاثة الى الكنيسة كان العرق يتصبب منهم، فتوجهت العجوز الى بائع الشموع واشترت ثلاث شمعات، حمل كل منهم واحدة منها، وتوجهوا بخشوع باتجاه الايقونة التي على الجدار وثبتوا الشموع في الشمعدانات، وابتهلت كل من سيفدا وأمها الى السيدة العذراء، أما ستويكو فانه تلا دعاء كان قد تعلمه من أبيه، ثم خرج الى فناء الكنيسة واشعل سيجارة، وهو ينتظر خروج زوجته وأمها..

لما خرجتا.. قالت كازالباشكا لابنتها وصهرها: والآن، هيا بنا الى الصخرة، انها.. كما قالت لي زوجة القس خلف الكنيسة.. وفي طريقهم نحو الصخرة، قالت العجوز لصهرها:

ـ لقد أكدت لي صديقاتي ان كل عروس يتأخر حملها، وتأتي الى هذا المكان لتتضرع الى الرب، وهي ممسكة بالصخرة المباركة، لابد من أن تحمل وتلد..

سألتها ابنتها: وبعد كم من الوقت ياأماه ؟.. فأجابتها العجوز: عندما يريد الرب..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مضت على زيارة تلك الكنيسة ربع عام أو اكثر دون ان يتحقق حلم «سيفدا» فكانت تبكي سرا، وتبث همها لزوجها «ستويكو» الذي تجرأ وقال لامه :

ـــ قررت ان اصطحب زوجتي الى صوفيا كي يفحصها الاطباء، سمعت ان هنالك اخصائيين كبارا يستطيعون مساعدتنا.

انتفضت أمه مستنكرة وقالت :

ـــ لاتنسى يابني اني ولدتك دون ان أذهب الى صوفيا ..

احتد ستويكو من كلام أمه وقال لها :

ـــ على كل حال اذا لم تقنعي أبي من أجل ان يعطيني مصروف السفر .. فانني سوف اترككم وابحث لي عن بيت مستقل.

فما كان من أمه إلا ان أجابته بلهجة لئيمة :

ـــ اذهب اذن .. واسكن عند حماتك ..

اصلح ستويكو من لهجته قليلا وقال لامه :

ـــ ماما .. أنا ماقصدت .. لكنني أنا الذي يريد ولدا ونسلا ..

فقالت له أمه :

ـــ حسنا .. حسنا .. سوف أحاول ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي المساء عندما عاد يورتالان الى البيت قالت له زوجته :

ــ ابنك ستويكو يريد ان يصطحب زوجته الى صوفيا كي يعرضها على الاطباء .

فسألها زوجها :

ــ هل هو الذي قال لك ذلك ؟

فأجابته يورتالانكا بحنق :

ــ وهل أنا التي يمكن ان تخترع هذا الكلام ؟.

امتعض يورتالان ، وقال لزوجته :

ــ اذا كان الرب لايريد .. فماذا بامكان الاطباء ان يفعلوا ؟.

وأشعل سيجارة وراح يطلق دخانها في الفراغ ..

اكفهر الجو في بيت يورتالان بعد هذه الحادثة قليلا .. وشعرت سيفدا بوطأة ذلك على نفسها .. بيد انها كانت تتلهى عن كل ذلك بالعمل .. وبالحديث مع اليكسي الذي كان يتبعها اينما ذهبت مثل ظلها .. اذ كان ذلك الطفل الصغير يحس بغريزته أنها الوحيدة في البيت التي تملك قلباً كبيراً مستعداً للعطاء بلا حدود ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يكن كل مايجري حول سيفدا ليهمها الى درجة قلقها من تصرفات زوجها ستويكو، ليس معها بل مع الآخرين أيضاً، والتي اصبحت تزداد يوما بعد يوم شبها بتصرفات أبيه يورتالان..

كان العمل قد اصبح كل مايهم ستويكو في حياته، وحتى طريقة حديثه عن الناس أو معهم كانت لايمكن إلا ان تذكر بأسلوب والده في فهم الامور والاجابة على الاسئلة والتعليق على أحداث القرية.. هذا بالاضافة الى ان ستويكو لم يكن ليستطيع ان يأتي بأية حركة دون ان يستشير أباه وكان مايقوله أبوه بالنسبة له هو القول الفصل، فقد انشأه يورتالان على الطاعة المطلقة، وكان ستويكو قانعا بكل ذلك، راضخا ومستسلما لقدره ولابيه حتى ان أهل القرية انفسهم كانوا قد بدأوا يلقبونه بيورتالان الصغير..

لم يمض وقت طويل حتى شعرت سيفدا بأن حماتها تتحاشى النظر اليها، ولاتجيبها على اسئلتها إلا بكلمات مقتضبة: نعم أو كلا.. كما لاحظت ان عمها «يورتالان» اصبح يزداد تجهما وتغيبا عن البيت..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكن سيفدا التي كانت تعلل نفسها بأن حماتها امرأة عجوز، وليس عليها ان تضيع وقتها بتحليل تصرفاتها، لم تكن لتجد مبررا لغياب عمها يورتالان عن البيت.. وكان مايزيد استغرابها علمها ببخله، فلم تكن لتدري بما طرأ عليه كي يسمح لنفسه بالتردد على حانات القرية، وشرب الخمر، وتبديد المال، وقد حاولت ان تسأل زوجها ستويكو عن سر ذلك، لكنها لم تجد لديه الجواب الشافي.. فما كان منها إلا ان قنعت بتسليتها الوحيدة في البيت، ألا وهي ملاعبة اليكسي، بين حين وآخر.. مع قرار حازم بعدم الاهتمام بأمور العجائز.

في احدى الليالي عندما عاد يورتالان الى البيت، وكانت سيفدا في المطبخ، سمعت حماتها تسأله:

ـــ ماذا جرى أيها الرجل كي تتأخر حتى هذا الوقت..؟ انتظرناك على العشاء ولم تأت..؟.. أين أكلت..؟

فأجابها يورتالان بحنق لامبرر له:

ـــ في جهنم..

فقالت له يورتالانكا مستنكرة لهجته:

ـــ هل اصبح محظورا ان نسألك عن سبب تأخرك ؟. أم..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فقاطعها يورتالان قائلا :

ـــ مادمت تعرفينني جيدا .. فكيف تسمحين لنفسك بأن تطرحي علي مثل هذه الاسئلة السخيفة ..؟

ـــ انشغل بالي ..

ـــ حسنا .. مادام قد انشغل بالك .... فباستطاعتك أن تأخذي علما بانني مشغول ..

ـــ مشغول بماذا ؟

ـــ بقضية .

ـــ قضية من ؟

ـــ قضية من يمكن ان تكون ؟ قضيتي أنا .

ـــ تقصد ..

ـــ أقصد ماذا ..؟

ـــ تقصد بقضية الصبي .. ابن استاروف ؟

استفزت هذه الجملة أعصاب يورتالان المتعبة وقال لزوجته بصوت عال :

ـــ أنت يجب ألا تتدخلي بأموري الشخصية .. تستطيعين ان تلهي نفسك بأعمال المطبخ .. كما تفعل كنتك ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خافت يورتالانكا قليلا ، وذهبت بها أفكارها كل مذهب، ثم حاولت ان تهدىء من روعها ، وجهدت من أجل أن تعدل من لهجتها ، لكن صوتها تهدج بعض الشيء وهي تقول لزوجها :

ــ ماهكذا يتحدث الرجل مع زوجته بعد ثلاثين سنة من الحياة معا ..

انكمش يورتالان على نفسه ، واشعل سيجارة ، وقال لزوجته :

ــ المهم ان تطمئني على أن الموضوع الذي أشرت اليه .. أعني موضوع الصبي .. لم يعد واردا في قليل أو كثير .. واذا كنت راغبة في ان تعرفي المزيد فاعلمي انه قد داهمتني مصيبة جديدة .

ذعرت يورتالانكا عندما سمعت بكلمة مصيبة جديدة .. وسألت زوجها بمزيد من القلق .

ــ مصيبة جديدة ؟

ــ أجل مصيبة جديدة ..

ــ وما هي المصيبة الجديدة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ قصة «المرج» ..

ـ تقصد مرجنا الذي يريدون استلابه منا ؟

ـ أي نعم ..

ـ وهل يستطيع بينيو باندوروف ان يأخذ منك أرضك ؟

عندما وصل العجوز وزوجته الى هذا المكان من الحديث، شعرت «سيفدا» التي كانت في المطبخ ان بامكانها أن تدخل الى الغرفة، كي تفهم هي الاخرى موضوع (المرج).. فما كان منها إلا ان حملت ابريق الشاي والفناجين ... وسعلت اكثر من مرة .. ثم تجاوزت عتبة الغرفة .. وقالت لعمها متلعثمة:

ـ مساء الخير .. اذا كنت لم تأكل حتى الآن .. فسأعد لك العشاء فورا ..

أجابها يورتالان باقتضاب :

ـ الشاي يكفي .

ثم أشعل كعادته، سيجارة من اخرى .. عندما سمع الجميع صوت وقع أقدام ستويكو العائد هو الآخر متأخرا ومجهدا، فما كان من سيفدا إلا ان صبت الشاي لعمها، والتفتت لتسأل زوجها :

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ هل أضع لك العشاء.

أجابها ستويكو برفق:

ـ بعد قليل.. دعيني الآن من العشاء.

فسألته أمه:

ـ وما بك أنت الآخر ؟

أجابها ستويكو:

ـ ألم تعلمي من أبي انهم سيأخذون منا المرج.. أنا منذ ان فتحت عيني على النور اعرف ان هذا المرج لنا.. والآن يريد بينيو باندوروف الوغد ان يأخذه له..

فقالت له أمه:

ـ بينيو باندوروف ؟.. هل تخشيان أنت وأبوك بينيو باندوروف ؟ أليست هنالك حكومة ؟.. أنا منذ ان تزوجت أباك اعرف ان اسم هذا المرج عند جميع أهل القرية هو «مرج يورتالان».. فكيف يأتي هذا الكلب ليدعيه لنفسه ؟ دعوني أخرج إليه لاعرفه بقدره..

سكن يورتالان كثيرا، وهو يرتشف الشاي ويستمع الى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حديث زوجته وابنه، ثم اشعل ـــ كعادته ـــ سيجارة من اخرى، وقال لزوجته :

ـــ كلامك هذا لايفيدنا في شيء.. فاذا كان بينيو باندوروف كلبا أم لا .. فانه يسعى لسلبنا مرجنا هل فهمت ؟

قطبت يورتالانكا مابين حاجبيها وقالت :

ـــ أنا لا أظن ان الفوضى قد ضربت أطنابها الى هذا الحد.. صحيح ان لباندوروف أصدقاء في المدينة.. ويقولون عنه أنه يشتغل بالسياسة.. ولكنه هنا في القرية ليس اكثر من كلب.. وأنا اعتقد ان القرية كلها مستعدة لتشهد معنا على أن المرج لنا.. هل أنا مخطئة ؟..

هز يورتالان رأسه وقال :

ـــ مخطئة أم غير مخطئة.. ان هذا أيضا لايفيدنا.. الموضوع هو من الاقوى ؟.. نحن أم باندوروف ؟.. الذي فهمته هو أن الحزب الذي ينتسب إليه قوي جدا هذه الأيام.. وانه يستعد لخوض معركة الانتخابات في كل أرجاء بلغاريا.. اذا كان هذا صحيحا فانه الطامة الكبرى..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رفضت يورتالانكا كلام زوجها وقالت :

ـ ماهذا الكلام ؟.. الحق هو حق ان كسب حزب باندوروف أم خسر .. المرج هو مرجنا هذا كل ما في الأمر .. ألا يوجد لديك سند رسمي به ؟..

ـ اسمعي يا امرأة .. انا شخصيا كنت قد اشتريت هذا المرج من الكنيسة قبل ثلاثين سنة .. ولدي عقد شراء .. ولكن باندوروف يدعي ان أرض المرج كانت في الاساس لجده وأنه يملك كل الوثائق الرسمية التي تثبت ذلك ، وأنها مسجلة في الدوائر الرسمية باسم جده الذي مات قبل عشرين سنة ، وان شرائي للمرج لم يكن قانونيا ، وأنه يستطيع بمساعدة حزبه ان يسترده دون ان يعطيني قرشا واحدا .

ـ لمن يقول كل هذا ؟ ومتى ؟..

ـ قاله للهيئة الاختيارية التي استمعت الى أقواله بانتباه شديد .. ذلك لان بعض اعضائها لايحبني .. وبعض اعضائها يخشى علاقات باندوروف بسياسي كبير في المدينة .

فكّرت يورتالانكا قليلا وقالت :

ـ والهيئة الاختيارية هذه التي تقول انها تنصت بانتباه الى كل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مايقوله عدوك كم بقي لها من السلطة .. حد علمي ان أهل قريتنا سوف ينتخبون هيئة اختيارية جديدة .. ومختارا جديدا أيضا ..

هنا تدخل ستويكو في الحديث وقال :

ـــ المصيبة ياأمي هي ان المختار المنتظر قد يكون باندوروف نفسه ..

فسألته أمه باستهجان :

ـــ باندوروف مختار ؟.. ياللمهزلة ..

فقال لها ابنها :

ـــ انه مدعوم ياأمي .. مدعوم من المدينة ثم لاتظني ان كل أهل القرية يحبوننا .. ان اكثرهم يغار من أبي .. واذا كنا نحن مشغولين بزراعتنا وفلاحتنا وتحسين أمورنا فان باندوروف رجل لاعمل له ، كثير الاختلاط بالفلاحين ، وله بينهم انصار ، هل تفهمين معنى أنصار ؟..

قالت يورتالانكا :

ـــ كلا .. لقد تركت الفهم لك .. تقصد بالانصار هؤلاء الذين يمكن ان ينتخبوه مختارا ..؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ صحيح تماما ..

ـ وأبوك لماذا لايصبح مختارا ..؟

ابتسم يورتالان ابتسامة صفراء، وقال لزوجته :

ـ كيف تسمحين لنفسك ان تطرحي مثل هذا التساؤل ؟.. ألا تعرفين انني رجل يكره السياسة ؟.. ان مجرد تفكيري بترشيح نفسي لهذا العمل، أقصد المختارية، يعني انتسابي لحزب ما، للحزب الاقوى، وهذا يستوجب ذهابي الى هنا وهناك، واهمالي لاعمالي، والجلوس مع أناس لاأحبهم، وتملق ساسة المدينة، ودعوة هذا، واكرام ذاك، الموت أهون علي من كل هذه المسائل.

تألم «ستويكو» على أبيه الذي كان يجابه موقفا صعبا على طبعه، وقال له :

ـ اسمع ياأبي .. انت تعرف كم أنا أحبك واحترمك .. ولكن هذا لايعني ألا أقول رأيي في بعض الامور ولمصلحتك أنت ..

أشعل يورتالان سيجارة من سيجارة، وقال لابنه :

ـ هيا علمني أنت أيضا ..

ـ كلا ياأبي .. أنا لا أريد ان أعلمك، لكنني لا أوافقك على ان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الموت أسهل على الانسان من أن يصبح مختارا... لماذا ياأبي تستصعب هذه المسألة الى كل هذا الحد ؟

ـ أية مسألة ياستويكو ؟.. أية مسألة ؟

ـ أقصد ان تكون مختارا..

ـ ان اصبح آخر عمري مختارا..؟

ـ هذا أفضل من أن تفقد المرج.. سوف تكون في موقع يساعدك على الدفاع منه عن نفسك..

أعجبت يورتالان الجملة الأخيرة التي قالها ابنه ستويكو، وتصور نفسه، وهو في دار المختارية، ومع أعضاء الهيئة الاختيارية، يدافع عن حقه الطبيعي في ملكيته للمرج الذي اشتراه من الكنيسة.. فما كان منه إلا ان اعتدل في جلسته، وقال لابنه:

ـ لاتظن ياستويكو انني لم اشعر برغبتك هذه منذ اكثر من شهر.. أقصد منذ ان بدأوا يتحدثون عن الانتخابات في القرية.. كنت ألاحظ انك تختلط بأناس لم تكن تختلط بهم من قبل.. وتجامل رجالا كنت تأبى حتى مجرد تحيتهم.. واصبحت تسهر في بيوت لم تكن تدخلها، أليس هذا صحيحا ؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ صحيح .. ولكن هل هو معيب ..؟ انني ابن لايريد ان يفقد أبوه قطعة كبيرة من أرضه كان قد اشتراها بكدح يمينه، كما انني اشعر ان مجرد انتصار باندوروف علينا سوف يفقدنا هيبتنا في القرية .. فلماذا لا أتحرك باتجاه يرد عنا كل هذا البلاء ؟

كانت يورتالانكا تنتبه الى حديث ابنها باهتمام زائد، وتهز رأسها موافقة، ثم مالبثت ان تدخلت في الحديث بينه وبين أبيه، وقالت لزوجها :

ـ كلام ابنك صحيح وسليم .. واذا كان باندوروف يملك أنصارا .. فان لك ولي أقارب ليسوا قليلي العدد في القرية .. سوف ينتخبونك دون حزب ودون سياسة .. مارأيك ..؟

التفت يورتالان الى كنته «سيفدا» التي كانت تجلس في لغرفة صامتة، وقال لها مجاملا :

ـ مارأيك ياكنتي ؟.. هل توافقين على أن اصبح مختارا ؟..

فوجئت «سيفدا» بسؤال عمها لها وماكان منها إلا ان أجابته متحمسة :

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ ولم لا ياعمي ؟.. ليس قليلا ان يصبح الانسان مختارا..

أشعل يورتالان سيجارة أخرى، وقال لابنه:

ـ يجب ان نفكر حول كل هذه الأمور بعناية.. ان من عادتي كما تعرف ألا اتخذ قرارات سريعة.. مارأيك ؟

ـ رأيي انه لم يعد هنالك من وقت للتفكير بعناية.. الانتخابات بعد اسبوعين.. واذا قررت فيجب علينا ان نبدأ بالدعاية الانتخابية منذ الغد..

علقت يورتالانكا على حديث ابنها قائلة:

ـ صحيح أن بعض الأمور العاجلة تستوجب قرارات صائبة وسريعة..

فنظر اليها «يورتالان» ضاحكا وقال:

ـ ماذا يتوجب علي اذن ان أفعل ؟

فقالت زوجته:

ـ أن تصبح مختارا.. أن تلقم باندوروف خنجرا.. هل فهمت ؟

هز يورتالان رأسه وهو يقول:

ـ فهمت.. فهمت..

في تلك الليلة لم يستطع يورتالان النوم، فكان يتقلب في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فراشه، ويسأل زوجته بين حين وآخر عن حالة بعض أقاربهم، وعن كيفية الدعاية الانتخابية وعن أول عائلة يجب ان يزورها ويفضي إليها برغبته في ترشيح نفسه، فقالت له زوجته: سوف تذهب لزيارة عائلة: «تسرفيناكوف»، انهم من أبناء عمي وهم يحبونك ويحترمونك..

لم يخيب يورتالان ظن زوجته، وما كان منه في مساء اليوم الثاني إلا ان قصد تلك العائلة بصحبة ابنه ستويكو، فاستقبله الرجال هناك بكثير من الترحيب وبعد أن تبادل معهم أطراف الحديث عن الطقس والصحة والعمل، سأله تسرفيناكوف:

ــ بلغني أنك سترشح نفسك للانتخابات ؟

فأجابه يورتالان:

ــ هذا صحيح.. ولكن من الذي قال ذلك ؟

ــ سمعت هذا الخبر من بعض أصحابك في المقهى..

ــ من بعض أصحابي في المقهى ؟.. أنا شخصيا لا أتردد الى المقهى.. هل تستطيع ياأخي تسرفيناكوف ان تتذكر ماقالوه ؟

ــ قالوا ان بينيو باندوروف قد حرك قضية ضدك في الهيئة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاختيارية الحالية وتهجم عليك، وادعى ان المرج له وليس لك، كما وأنه قد أعلن ترشيحه لمنصب المختار في الهيئة الاختيارية الجديدة لذا فانهم يقدرون بأنك ستخوض المعركة ضده حتما ..

هز يورتالان رأسه مستغربا، وقال:

ـــ يالتقديرات الناس كم تكون مصيبة في بعض الأحيان ؟

فعلق ابنه ستويكو قائلا:

ـــ هذا هو الجو في القرية، كما قال لك العم «تسرفيناكوف» ..

بيد ان يورتالان لم ينس عبارة كان قد قالها تسرفيناكوف فالتفت اليه وسأله:

ـــ قالوا لك أن باندوروف قد تهجم علي في مقر الهيئة الاختيارية .. حسنا .. ولكن ماذا قال هو ؟

أطرق تسرفيناكوف رأسه قليلا، وأجاب

ـــ تستطيع ان تقدر ذلك بنفسك .. فكيف يتهجم انسان مثل باندوروف على عدوه ؟ إنني في الحقيقة أخجل من أن أروي لك ماسمعته ضدك عن لسان ذلك الوغد ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تحمس يورتالان وأشعل سيجارة من أخرى وقال لتسرفيناكوف :

ـ لا .. لاتخجل .. يجب ان أعرف كل شيء من أجل ان أخوض الانتخابات وأنا على بينة من أمري ..

صمت تسرفيناكوف وقد أبى الجواب .. بيد أن يورتالان المنفعل أعاد الكرة وقال له :

ـ أرجوك ياتسرفيناكوف .. قل لي ماذا قال :

تلعثم الرجل ، ثم بلع لعابه ، وقال :

ـ اسمع ياأخانا المحترم .. ان علجا مثل باندوروف لايمكن ان تتوقع منه كلمات مهذبة في مجال حديثه عنك .. انه يشتمك .. هذه هي الخلاصة ..

ـ يشتمني أنا ؟.. أنا يورتالان ... اقسم بشرفي سوف أريه النجوم في عز الظهيرة ..

قال يورتالان ذلك محتدا ، ثم سأل تسرفيناكوف :

ـ سوف تعملون معنا أنت واخوتك وأولادكم .. لقد عملت بنصيحة زوجتي أم ستويكو وكنتم أنتم أول عائلة أزورها مبتدئا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نشاطي الانتخابي.. وانني أقول لك بصراحة انني مستعد لشراء الاصوات.. غدا صباحا سوف أعطيك حزمة من الليفات كي تنفقها على من تشاء.. المهم أن تصل الى نتيجة..

ابتسم تسرفيناكوف وقال:

ـ الأمر أمرك.. سوف نخدمك بعيوننا.. نحن أقرباء..

خرج يورتالان وابنه ستويكو من بيت تسرفيناكوف.. وقصدوا بيت «نيديلييف» ثم بيت «سانداكوف».. ثم عرجوا الى المقهى.. ومن المقهى الى الحانة.. حيث دفع يورتالان اكثر من مائتي ليفا ثمن لحم ونبيذ لكل الرجال الساهرين هناك.. ومازحهم.. وروى لهم النكات.. ثم عاد هو وابنه الى البيت ليجد «سيفدا».. تنتظرهما خلف الباب، فما أن دخلا حتى انفجرت باكية.. وقالت موجهة كلامها لزوجها:

ـ أين كنتما ياستويكو..؟ هل تدري كم الساعة الآن ؟.

أدرك ستويكو مدى هلع زوجته عليه وعلى أبيه، فقال لها بلهجة لطيفة:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ كنا في الحانة .. سقينا الناس خمرا على حسابنا .. وأطعمناهم شواء لذيذا .. وأتينا .. هذه هي الانتخابات يا«سيفدا» ..

هنا تدخل أبوه في الحديث قائلا :

ـ ولكن هل تعتقد ياستويكو ان هذا مفيد ؟

فقال له الابن :

ـ مفيد مع البعض .. وغير مفيد مع البعض الآخر .. فالانتخابات كما تعلم ياأبي سرية ..

عندما سمع يورتالان كلمة (سرية) انقبضت نفسه ، وسأل ابنه :

ـ وهل أعطي تسرفيناكوف المبلغ الذي وعدته به ؟

تريث ستويكو في إجابته على سؤال أبيه .. ثم فضل ان يقول له :

ـ على كل حال فأنت أعرف مني ياأبي بطباع البشر ..

وهنا خرجت العجوز يورتالانكا من غرفة النوم ، وسألت زوجها وابنها :

ـ كيف حال أبناء العم ؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فأجابها يورتالان باقتضاب :

ـــ انهم بخير ..

وأضاف ابنها :

ـــ ويقرئونك السلام ..

فقالت يورتالانكا :

ـــ حسنا .. حسنا .. يجب ان تزوروا الجميع .. ماذا يظن هذا الكلب باندوروف ؟.. هل يعتقد انه لا أهل لنا ولأحباب ؟..

ضحك ستويكو ، وقال لامه :

ـــ أنت تصلحين للعمل في السياسة ياأماه

فقالت له يورتالانكا :

ـــ ليس المهم ان أصلح أنا .. بل المهم ان تصلحا أنتما ..

عندما قالت يورتالانكا ذلك ... التفت ستويكو الى أبيه، وقال له :

ـــ اننا مقصرون جدا مع أهل القرية ياأبي .. ان البيوت التي زرناها اليوم لم تطأها أقدامنا منذ عشر سنوات ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فقال له أبوه :

ـــ المهم ان نصل الى نتيجة ..

وفي صباح اليوم الثاني حمل يورتالان ألفي ليفا، ومضى ليعطيها لتسرفيناكوف .. ثم التقى مع ابنه في المقهى .. وشرح للحاضرين برنامجه الانتخابي .. ولم ينس ان يتهجم على خصمه باندوروف .. فوصفه بالانتهازي، والوصولي، والوضيع .. وقال ان المختار الذي لايستمد قوته من أهل قريته ليس مختارا .. وان علاقات باندوروف مع بعض السياسيين الذين يشبهونه في المدينة يجب ألا تجعل منه بأية حال من الأحوال مختارا لقرية تحترم نفسها .. ثم طلب للجميع شايا على حسابه فتمنى له بعض القرويين التوفيق والنجاح ومن المقهى توجه يورتالان الى الكنيسة وأوقد شمعة أمام أيقونة تمثل السيدة العذراء، وتلا صلاة طويلة كان يحفظها منذ زمن طويل، وفي المساء كان قد دعا الى طعام العشاء بعض اصدقائه المقربين، وكان قد ذبح لهم أربع دجاجات، هذا عدا الفاكهة التي جلبها ابنه من البلدة القريبة .. واستمرت الحال على تلك المنوال اسبوعين كاملين انفق فيهما يورتالان مبالغ لايمكن ان يصدق أحد أن ينفقها مهما كانت الأسباب .. بيد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن يورتالان المعروف بعناده أيضا كان قد أخذه الحماس الى درجة أضحى معها ليس كريما فقط بل متلافا أيضا.. بيد أن النتيجة كانت صفرا، فقد خذلته الغرفة السرية.. وخذله أهل القرية.. ولم يحرز سوى صوتين اثنين فقط.. لعلهما صوته وصوت ابنه ستويكو.. ذلك لان الناس لم يكونوا يحبونه.. ونجح غريمه باندوروف، واصبح مختارا.. وجن جنون يورتالان.. وكاد ان يفقد صوابه.. ولم يتحمل جسده الواهي المتعب من التدخين هول الصدمة.. فسقط مريضا يئن في فراشه.. وخيم الوجوم على داره.. وحتى اليكسي الصغير فقد كف عن اللعب.. واصبح ينام مبكرا جدا.. دون ان يدرك سبب كل ذلك البلاء..

ماهي إلا أيام حتى تحامل يورتالان على نفسه من جديد، ونهض، وخرج من البيت قاصدا المقهى، وهو يتظاهر ان كل ماجرى لايهمه في شيء، وعندما جلس مع جماعة هناك تقصد أحدهم ان يستثيره، وقال له:

ـــ ان غريمك ياأخ يورتالان يشتري فرشا جديدا لمقر المختارية..

هز يورتالان رأسه وأجاب:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـــ من يدري كم سيدس في جيبه ..

فقال له الرجل :

ـــ هل تقصد انه لص ..

فأجاب يورتالان باقتضاب :

ـــ نعم ..

فسأله كوتسو الأعرج :

ـــ وهل ستزور المختارية بعد أن اصبح باندوروف مختارا ؟.

فقال له يورتالان :

ـــ ان المختارية ليست ملكه على كل حال ، سأزورها عندما يكون هنالك مايستدعي ذلك .. أنا بطبيعتي لا أتردد الى المختارية كثيرا ..

ـــ ألم تستغرب كيف نجح في الانتخابات ؟

ـــ الذنب ليس ذنبه .. بل ذنبكم أنتم .

ـــ أنا لم انتخبه ..

ـــ تريد أن تقول انك انتخبتني أنا ؟

ارتبك الرجل قليلا ، بيد ان يورتالان أضاف قائلا :

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ أنا الذي قد اخطأ على كل حال.. لقد تورطت، ورشحت نفسي، وأنا أدرى الناس بلؤم الفلاحين..

انتفض أحد الجالسين من كلام يورتالان، وسأله:

ـ ألا تعتبر نفسك فلاحا ياسيد يورتالان ؟

ـ اذا لم أكن أنا فلاحا.. فمن هو الفلاح يا ابن الحلال ؟ لقد قضيت حياتي في خدمة الأرض..

ـ وفي جمعها أيضا..

ـ نعم وفي جمعها أيضا.. ولكن بعرق جبيني.. وليس عن طريق اللصوصية ؟

وما هي إلا لحظات حتى دخل المختار الجديد ـ باندوروف ـ الى المقهى واتجه الى الطاولة التي يجلس قربها يورتالان، وألقى التحية، وتناول كرسيا قريبا، جلس عليه، وقال موجها كلامه ليورتالان:

ـ لقد بحثنا في الهيئة الاختبارية موضوع المرج.. واتخذنا قرارا بخصوصه سوف أستعيده منك..

ـ أنت وقح الى درجة التفكير بسلب الآخرين ملكياتهم بدعوى استعادتها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ احفظ لسانك يايورتالان .. انا أعرف ماذا أقول .. مرجي وأريد ان أستعيده .

ـ لقد اشتريته بمالي .. ولم أسرقه ..

ـ صحيح انك اشتريته بمالك ولكن من أناس لايملكونه ..

ـ انني اشتريته على كل حال ..

ـ ببضعة قروش أليس كذلك ؟

ـ بقرش واحد .. لكنني اشتريته .

ـ لكنني أملك سندا رسميا بذلك .

ـ سند رسمي .. ومنذ مائة عام أليس كذلك ؟

ـ منذ ألف عام لكنه سند رسمي .. هكذا قال لي المحامون والسياسيون في المدينة ..

ـ ان هؤلاء المساكين لايعرفون من أنت .. وماهي قيمتك الحقيقية .

ـ اسمع يايورتالان .. انني أنصحك أمام الجميع بعدم التطاول على رجالات حزبي

امتقع وجه يورتالان ، وتهدج صوته وارتجفت يده وهو يشعل سيجارة من أخرى وقال لغريمه :

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ أنا لم أخش أحدا طوال حياتي أيها الوغد..

ـ لكنك ستخشى من يستطيعون ارسالك الى السجن..

ـ الى السجن..؟.. السجن لامثالك أيها الوغد.. بل اكثر من ذلك أنه لامثال هؤلاء الذين تتكلم عنهم، وتضرب بسيفهم..

نهض باندوروف من مكانه، وقال ليورتالان متوعدا:

ـ سوف ترى بنفسك السجن لمن ؟

وضرب الطاولة بيده، وخاطب الفلاحين المتحلقين حوله وحول يورتالان:

ـ أنتم جميعا شهود على ماتفوه به هذا المعتوه.. وأنا الذي أريه نفسه على حقيقتها..

بصق يورتالان على الأرض، وقال لباندوروف:

ـ بل أنا الذي سيعلمك من هو يورتالان.

في ذلك المساء عاد يورتالان الى بيته قلقا يفكر بسبب تهديد باندوروف له بالسجن، وقد خشي أن يكون غريمه على علم بموضوع الصبي، وسألته زوجته عن سبب غمه واكتئابه لكنه رفض ان يبوح لها بشيء..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أما باندوروف الذي كان منهمكا باقناع أعضاء الهيئة الاختيارية بحقه في استرداد المرج، فقد اصطدم بفكرة عرضها أحد الأعضاء وأيده الآخرون، ألا وهي ضرورة استشارة المحكمة في شرعية استرداد المرج من يورتالان، اذ كان هؤلاء الاعضاء يكرهون باندوروف في قرارة نفوسهم ويغارون منه، كما انهم يخشون تبدل الحكومة، اذ تناهى الى أسماعهم ان الأحزاب في (بلوفديف) والعاصمة هي في حالة خلاف شديد قد يجر البلاد الى انقلابات الأمر الذي قد يعرضهم في المستقبل الى محاسبة هم في غنى عنها.

وكان يورتالان يتابع كل ذلك من طرف خفي، دون ان يحدث ابنه ستويكو أو زوجته بشيء، بيد أن ابنه عاد في مساء أحد الأيام، وابتدر أباه قائلا:

ــ هل سمعت آخر أخبار موضوع المرج ؟

هز يورتالان رأسه، وقال لستويكو:

ــ نعم سمعت..

انتبهت يورتالانكا الى مايدور بين زوجها وابنها ستويكو من حديث، وسألته:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ تقصدان مرجنا .. ؟ ألم ينته هذا الموضوع بعد ؟

أشعل يورتالان سيجارة من أخرى ، وقال لزوجته :

ـ كلا .. لم ينته ..

فسألته يورتالانكا بجزع :

ـ ماذا جرى اذن ؟

فقال لها يورتالان :

ـ الكلب باندوروف مازال مصرا على أخذه منا ..

فما كان من ستويكو إلا أن جلس قرب أبيه ، وقال له بانفعال شديد :

ـ لقد أخذه وانتهى ياأبي ..

اعتدل يورتالان في جلسته ، وقال لابنه :

ـ لاتتسرع ..

فأجابه ستويكو :

ـ لست متسرعا أبدا .. لقد أقرت الهيئة الاختيارية بجميع الاصوات ، وبموافقة حاكم بلوفديف الجديد ، أن يؤخذ المرج منا وان يصبح مشاعا لأهل القرية كلهم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تجهم وجه يورتالان ، وبلع لعابه ، وقال بحدة :

ـــ سوف اقتله ..

تريث ستويكو في إجابته لابيه ، بيد انه مالبث ان هز رأسه بأسى ، اذ تذكر موضوع الصبي الذي قتله أبوه وقال له :

ـــ دعنا من موضوع القتل ياأبي .. لقد أخذوا المرج وانتهى الموضوع ... القرار موقع من الحكومة ومعلق على باب الهيئة الاختيارية .

هنا تدخلت يورتالانكا لتقول :

ـــ ان باندوروف هذا كلب مسعور ، ويستحق القتل ، لو كنت رجلا لما تأخرت عن ارتكاب هذه الجريمة ، لقد سلبنا المرج واعطاه لأهل القرية ، فما هي فائدته من ذلك .

أجابها يورتالان بصوت متهدج :

ـــ انه عدوي اللدود .. لست أدري لماذا يكرهني الى هذا الحد ؟

ثم التفت يورتالان الى ابنه ستويكو وسأله :

ـــ هذا يعني ان الكبار لم يوافقوا على اعطاء المرج لباندوروف .. ومادام لم يوافقوا على ذلك .. فلماذا اذن أعطوه لأهل القرية ؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فقال له ستويكو :

ـــ الوثيقة التي معه قديمة جدا .. تعود الى أيام جده الذي كان قد تنازل عن المرج لرجال الكنيسة .. بل ربما باعهم إياه .. لذا فإن الكبار لم يعترفوا له بملكية المرج .. وارتأوا اعطاءه لجميع أهل القرية .. كي يحسموا المشكلة .

فسأله أبوه ممتعضا :

ـــ وهل رضي أهل القرية بذلك ؟

ابتسم ستويكو ابتسامة صفراء وقال لأبيه :

ـــ هل أنت طفل ياأبي .. عفوا اذا كنت اتكلم معك بهذه اللهجة .. لكنني أريد ان اسألك كيف تريد من أهل القرية ان يرفضوا قبول المرج مشاعا فيما بينهم .. وهم يعرفون جيدا انك تحتقرهم ؟

أشعل يورتالان سيجارة من أخرى ، وقال لابنه :

ـــ نعم انني احتقر هؤلاء الفلاحين .. هل تريد مني شيئا ؟

ـــ كلا لااريد شيئا سوى ان اسألك ماذا تعتبرنا نحن ألسنا من أهل هذه القرية . صحيح أنك تملك مساحة واسعة من الأرض ، ولكن هذا لايعني ان تحتقر أقاربك وأهل قريتك ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غضب يورتالان غضبا شديدا ، وقال لابنه :

ـ لقد وصفتني قبل قليل بأنني طفل .. ولكن يجب ان تعلم ياستويكو إنني رجل .. ورجل حقيقي .. ولو لم أكن كذلك لبقيت فقيرا ..

إن هؤلاء الفلاحين يغارون مني رغم انني لم أسرقهم .. لقد تعبت واشتريت كل هذه الأراضي .. لماذا لم يفعلوا مثلي ؟.. هذا هو سبب شعوري بأنني أفضل منهم .. أنا أفضل منهم . هل فهمت أيها الولد ؟

هز ستويكو رأسه على مضض ، وقال لابيه :

ـ لم أعد صغيرا ياأبي كي لا أقول أمامك الحقيقة كلها ... ان جريك طوال حياتك وراء المال وجمع الأراضي قد ألهاك عن معاملة الناس معاملة حسنة ، صحيح اننا أغنى عائلات القرية ... لكننا غير محبوبين .. والانتخابات التي جرت خير دليل على هذا ..

صرخ يورتالان في وجه ابنه حانقا :

ـ صه .. أيها الأحمق .. هل تريدني أن أقبل أيديهم ؟.. لقد قضيت حياتي غير مهتم بمن يحبني أو لايحبني ، وأعتقد انني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كنت على حق، وها هي الاحداث تثبت انني كنت على حق.... انهم لايستحقون المحبة.. قال يورتالان ذلك، ثم التفت الى زوجته وأضاف ــ على كل حال ليس باندوروف وحده هو الكلب.. بل ان الجميع كلاب.

هزت يورتالانكا رأسها موافقة، وقالت لابنها:

اسمع مايقوله أبوك.. اكبر منك بيوم أعرف منك بسنة.. ياولد..

شعر ستويكو وهو يتأمل وجه ابيه المصفر انه قد أثقل عليه، فما كان منه إلا ان قال له:

ــ عفوا ياأبي ان كنت قد أزعجتك... ولكن لم يكن بوسعي أن اخفي عنك ماعلمته.. لكنني نسيت ان أقول لك شيئا آخر..

ذعرت يورتالانكا عندما سمعت عبارة شيء آخر. وقالت لابنها:

ــ وهل هنالك شيء آخر أيضا..

فأجابها ستويكو:

ــ نعم ياأمي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يتمالك يورتالان نفسه، فسأل ابنه:

ـ وماهو ؟

ـ لقد قرروا اعطاءنا قطعة صغيرة من الأرض، خلف الهضبة بدلا عن المرج.. ولقاء الثمن الذي كنت قد دفعته للكنيسة ثمنا للمرج..

فهز يورتالان رأسه متأسفا وقال:

ـ لعنة الرب عليهم.. وعلى أرضهم.. أنا لست على استعداد لقبول صدقة فلاحين حقيرين.. اذا كانوا قد أخذوا مني المرج، فانني سوف افاجئهم بشراء عشرات الهيكتارات من الأراضي كي يموتوا بغيظهم..

لم تمض على كل ذلك أيام معدودات حتى سمع أهل القرية ان انقلابا حدث في العاصمة، الأمر الذي انقبض له قلب «باندوروف» وقد علم ان حزبه لم يعد في السلطة، وسرعان ما انتشر الخبر في القرية، وبلغ مسامع يورتالان، فارتدى ملابسه على عجل، وخرج قاصدا المقهى، حيث القى التحية على عدد من الرجال، وجلس معهم، وطلب لنفسه كأسا من الراكيا وما ان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخذ جرعة منه، حتى سأل أحد هؤلاء الذين يسمون (الكسالى)، وقد توسم فيه انه لابد من أن يعرف شيئا عن أخبار السياسة.

ـــ سمعت ان جماعة (باندوروف) قد سقطوا هل هذا صحيح..؟

أجابه الرجل:

ـــ على كل حال ياأخ يورتالان هذا لايعني أنك ستستعيد المرج..

فقال له يورتالان بلهجة ساخطة:

ـــ أنا لا اسألك من أجل المرج ؟ بل..

ـــ من أجل ماذا اذن ؟.. تقصد من أجل الوطن..؟

ـــ لا من أجل هذا ولا من أجل ذاك.. بل من أجل ان أرى باندوروف وقد لف ذنبه وانتهى..

ابتسم الرجل، وقال ليورتالان:

ـــ اذا كان من أجل باندوروف فابشر..

عندما سمع يورتالان هذه الجملة.. نهض واقفا.. ورفع كأس الراكيا... وقال بصوت مرتفع:

ـــ هذه هي نهاية الكلب..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم طلب من النادل ان يأتي له وللرجل الذي أخبره بالنبأ السعيد بكأسين كبيرين من الراكيا وبقليل من المخلل، وماهي إلا دقائق حتى دخل ابنه «ستويكو» الى المقهى مبتسما، واقترب منه وسأله على مسمع من الجميع:

ـ هل سمعت الأخبار ؟

أجابه يورتالان:

ـ أنا لاتهمني الأخبار .. الذي يهمني هو الكلب.

فقال له ستويكو بلهجة متشفية:

ـ الكلب عاد كلبا .. وقد صدر قرار بتعيين مختار جديد ..

فسأله أبوه بلهفة:

ـ مختار جديد .. ومعين بقرار ؟.. أنا لم اسمع مثل هذا في حياتي .. ومن هو سعيد الحظ هذا ؟

ـ انه ليس من أهل القرية .. هو شاب من المدينة .. وقد منحوه كل الصلاحيات.

عندما سمع الفلاحون هذا الكلام من ستويكو هزوا رؤوسهم مستغربين، أما يورتالان فقد فكر في سره بأن في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استطاعته أن يرشي الشاب المدني ليستعيد مرجه، لكنه فشل
ان أشعل سيجارة من أخرى، وقال للفلاحين :
ـــ يبدو أن الحكومة الجديدة عاقلة وذكية .

فسأله أحدهم :
ـــ ومن أين عرفت ياعم يورتالان ؟
ـــ هذا واضح من تصرفاتها .. لابد ان المسؤولين الجدد يعرفون
انكم وأمثالكم لاتنتخبون غير أشخاص مثل باندوروف.
فقرروا ان ينتقوا لكم أناسا عاقلين يتم تعيينهم من قبلهم..
وهذا هو عين العقل .. وأنا شخصيا مع هذه الحكومة ..

بعد يومين أو ثلاث وصل المختار الجديد، وكان يورتالان
أول من ذهب ليسلم عليه، بيد أنه لم يستطع ان يفاتحه في أي
موضوع ذلك لأن المختار كان يبدو شابا عصبيا وقلقا، وكان
يورتالان يكره هذا النوع من أبناء المدن الذين لم يكونوا ليوحوا به
بأية ثقة، فما كان منه إلا أن جامله قليلا، ثم عاد الى بيته لايبوح
على شيء، وفي المساء سأله ابنه ستويكو :
ـــ أبي لماذا أنت هكذا سريع الحكم على الناس ؟.. قلت لا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المختار الجديد لم يعجبك.. ولكن هل خالطته كي تعرف ذلك ؟

فأجابه يورتالان :

ــ ان مثل هذا النوع من الرجال لايستطيع ان يسوي موضوعا أو يحل مشكلة.. أنا أعرفهم..

ابتسم ستويكو ، ولاحظه أبوه ، فقال له بلهجة استنكار :

ــ لاتبتسم عندما أتحدث.. هل فهمت ؟

ــ نعم فهمت.. ولكن قل لي ياأبي من أين تعرف هذا النوع من الرجال..

فأجابه يورتالان بعصبية :

ــ أعرفهم.. أعرفهم..

ــ حسنا ياأبي.. تعرفهم.. ولكن هل تخسر كثيرا اذا جربت ودعوته غدا الى طعام العشاء، كي نسهر معه، ونتعرف إليه ؟

فما كان من يورتالان إلا أن قطب مابين حاجبيه وقال لابنه :

ــ لاتعذب نفسك..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندما سمع ستويكو هذه الكلمة التي يعرف معناها جيدا عندما تصدر عن أبيه، هز رأسه دون ان يقول شيئا، وما هي إلا ساعة من الزمن حتى نهض يورتالان متوجها الى غرفة نومه، وسرعان ماتبعته زوجته، فالتفت ستويكو الى سيفدا قائلا:

ـــ هيا الى غرفتنا نحن أيضا.

بعد أقل من شهر استبدلت السلطة الجديدة المختار الشاب بآخر أصغر منه سنا، قال لأهل القرية أنه قد درس الرياضيات ولم يفهموا معنى هذه الكلمة، ثم استبدل المختار الثاني بمختار ثالث لفت نظر أهل القرية بمرحه ونوادره، ولما سألهم يورتالان عنه، قالوا له انه اكبر من الآخرين سناً، وانه بسيط ومتواضع، فقرر يورتالان في سره ان يذهب ويتعرف إليه، وعرض ذلك على ابنه «ستويكو» الذي فرح كثيرا، وقال لابيه:

ـــ حسنا ياأبي.. لنجرب..

فأجابه أبوه:

ـــ أنا الذي يقرر.. سوف أراه.. انني أفهم الناس من نظرة واحدة.. اسكت أنت..

سكت ستويكو كما طلب منه أبوه، وفي اليوم الثاني ذهبا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

معا الى مقر المختارية ، وقدما نفسيهما للمختار الجديد الذي رحب بهما أجمل ترحيب ، ومازحهما كما لو أنه يعرفهما منذ أيام طويلة ، وقال لهما انه غير معني بالأمور السياسية ، ولايدري أي حزب من الأحزاب قد أختاره لذلك المنصب الذي وصفه بانه منصب عجيب ، فما كان من يورتالان إلا ان استغل الفرصة ، وقال له :

ــ قد يكون هذا من حسن حظنا .. هل تشرفني غدا بتناول طعام العشاء عندي في البيت ؟

ابتسم المختار ، وقال :

ــ يسعدني ذلك .. أنا بانتظاركم غدا الساعة الثامنة مساء هنا ..

فأجابه يورتالان :

ــ سوف آتي انا لاصطحبك الى البيت .

وفي اليوم الثاني أعدت يورتالانكا بمساعدة كنتها سيفدا أنواعا عديدة من الطعام ، وجاء المختار الجديد ، وتناول طعام العشاء عندهم ، وشرب قليلاً من الراكيا ، ومازحهم فردا فردا ، الأمر الذي شجع يورتالان ، فتنحنح ، وقال لضيفه :

ــ سوف افاتحك في موضوع لم أسمح لنفسي بمفاتحة المختارين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اللذين سبقاكَ فيه.. ثم أشعل يورتالان سيجارة من أخرى وأضاف ــ والسبب في ذلك هو انني أحببتك..

ضحك المختار، وقال:

ــ كلي آذان صاغية.. تفضل..

فما كان من يورتالان إلا ان حدث ضيفه بقصة المرج من ألفها الى بائها.. ولما سمع الضيف القصة واستوعبها.. قال له:

ــ ان تصرفهم معك ليس قانونيا.. سوف نعمل على إعادة الحق لنصابه.

هز يورتالان رأسه مغتبطا، وقال للمختار الضيف:

ــ ليست المسألة بالنسبة لي هي مسألة ارض فقط.. بل قضية اعادة اعتبار.. أرجو ان تفهمني..

فقال له المختار:

ــ مفهوم.. واعدك خيرا..

وفي تلك السهرة في بيت يورتالان لم يتورع المختار عن ان يطلب من ضيفه قرضا، ولم يستطع يورتالان إلا ان يلبي طلبه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مر شهر وشهران ويورتالان ينتظر من المختار ان يفعل شيئا من أجل المرج، لكنه كان كلما ذهب الى المختارية وسأله عما تم بالموضوع، كان المختار يضحك ملء شدقيه، ويقول له:

ـ يبدو انهم في العاصمة يأكلون بعضهم البعض..!!

فيسكت يورتالان، ثم لايلبث ان يعود الى بيته منزعجا، وهو يسأل نفسه اذا كان الساسة هنالك يأكلون بعضهم البعض ألم يأكل هو دراهمي ؟.. لعنة الله على هذا الزمن.. وفي البيت كان يورتالان ينفث عن غيظه باستعمال العبارات القاسية مع زوجته وابنه.. بل ومع كنته سيفدا في كثير من الاحيان.. وعندما كان لايجد حجة لكل ذلك، كان يوبخ ابنه الصغير (اليكسي) بدعوى انه لايدرس، حتى اذا مابكى الطفل وقد شعر ان أباه يقسو عليه دونما سبب، عاد يورتالان، ليوجه الشتائم المقذعة الى معلمي مدرسة القرية الذين لايفهمون شيئاً.

بدأ «تونيو» صهر يورتالان زوج ابنته «ميكا» يتردد لزيارته كثيرا، وكانت سيفدا تلاحظه وقد انزوى مع عمه تحت الدالية يحدثه بصوت منخفض ويضحك بين حين وآخر، بينما كان عمها يورتالان يبتسم له كما لايبتسم لابنائه، فما كان من «سيفدا»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلا ان سألت زوجها ستويكو عما يمكن ان يدور بين تونيو وابيه من أحاديث، فقطب زوجها ستويكو مابين حاجبيه، وهزّ رأسه متألما وقال لها:

ـــ أنت لاتعرفين تونيو على حقيقته..

فقالت له سيفدا:

ـــ وما هي حقيقته ؟

فأجابها ستويكو باقتضاب:

ـــ ثعلب..

فغرت سيفدا فمها مستغربة، وقالت:

ـــ تونيو ـــ.. ثعلب..؟

هز ستويكو رأسه مرة ثانية وتأمل زوجته بحنان، وأجاب:

ـــ أنت طيبة ياسيفدا.. ولو لم تكوني كذلك لحزرت بنفسك ماذا يمكن ان يدور بين صهري وأبي من حديث..

فقالت سيفدا:

ـــ من أين لي أن أعرف ؟

وما كان من ستويكو إلا ان اقترب منها، وطبع قبلة حنان على خدها، وقال لها:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ بلغني أن أبي قد اشترى له مخزنا آخر في بلوفديف.. هل فهمت ؟.. انه يخدعه فقالت له سيفدا وقد ازداد استغرابها :

ـ وهل هنالك في العالم من يستطيع ان يخدع أباك ؟

ولم تمض أيام على ذلك الحديث بين سيفدا وزوجها ستويكو، حتى أتت ميكا لزيارة أهلها، ففرحت بها سيفدا كثيراً، لأنها أخت زوجها، بيد أن ميكا كانت كعادتها دائما تتكبر عليها، ونادرا ما كانت تتكلم معها، وحتى اذا مافعلت فانها كانت تختصر الحديث الى قدر الامكان، وكانت سيفدا تلاحظ ذلك وتتألم كثيرا، لكنها كانت تكتم كل ذلك في نفسها، فهي لاتريد ان تزعج زوجها أو أمها، حتى عندما بلغت الخسة بميكا ان أتهمتها بسرقة قطعة قماش من صندوق أمها، فإن سيفدا لم ترد على ذلك سوى بالبكاء، واكتفت بأن قالت لحماتها :

ـ أنا لم أسرق شيئا في حياتي، ولم يحدث ان دخلت الى غرفتك، أو اقتربت من صندوقك، فكيف تسمحين لابنتك بأن تتهمني هذه التهمة الشنيعة..؟

هزت «يورتالانكا كتفيها وأجابت :

ـ أين هي اذن قطعة القماش ؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندما سمعت سيفدا ذلك من حماتها شعرت بصدمة فظيعة، وأجهشت بالبكاء من جديد، وهي تردد:

ـــ حرام عليكم.. حرام عليكم.. هل لانني فقيرة ؟

ثم ارتدت سيفدا ثيابها، واطبقت الباب خلفها، وذهبت الى بيت أهلها، حيث رأت أمها وحدها تنثر الحب لدجاجاتها، فما أن رأت كازالباشكا ابنتها حتى أدركت بحسها الأمومي أن وراء مجيئها أمراً، فتركت كل شيء ودخلت معها الى المطبخ، حيث روت البنت لأمها كل شيء، وهي تشهق وتبكي، ثم قالت لها: لقد كرهت حياتي ياأمي.. لقد كرهت ياأمي.. ولن أعود الى بيت يورتالان..

أحب إلي ان آكل معكم ـــ أنت وأبي ـــ خبزا وبصلا من أن أذوق طعامهم.. لن أعود.. لن أعود..

أطرقت كازالباشكا قليلاً، وهي تفكر فيما تقوله لابنتها، ثم مالبثت أن اصطنعت ابتسامة ما، وسألتها:

ـــ وكيف هو زوجك ؟.. هذا هو الاهم..

ـــ زوجي ؟.. هل تسأليننني عن انسان بلا شخصية ؟.. زوجي ماذا يستطيع أن يفعل انه يخاف من أبيه، ولايستطيع ان يتفوه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بكلمة أمام أمه . إنه أمامها ليس اكثر من طفل كبير يفعل مايأمرون به دونما مناقشة .. لست أدري ماأقوله لك ياأمي .. اننا لسنا من طينتهم .. هم أناس آخرون .. لايغرنك مظهرهم خارج بيتهم .. انني أخجل ياأماه .. انني أخجل عنهم اذا مارغبت في أن أروي لك بعض تصرفاتهم .. ماذا تريدين أن أقول لك ؟.. ان العجوز يرمقني بشزر عندما يراني آكل بشهية .. أما زوجته فانها لاتوفر فرصة إلا وتعيرني بفقركم .. صحيح انهم أغنياء ولكنهم بخلاء .. بخلاء الى درجة لايمكن ان يتصورها اناس بسطاء مثلنا .. هل فهمت ياأماه .. هل فهمت ..؟

كانت كازالباشكا تفهم كل شيء ، بيد أنها كانت تأبى ان تتظاهر أمام ابنتها بذلك ، بل كانت تحاول الهاءها بأسئلة عن زوجها ستويكو ، وعن حبه لها وتذكرها كيف كان يأتي في الليل ليجلس معها قرب البئر ، لكن سيفدا فاجأتها بقولها بأن «ستويكو» لم يعد كما كان من قبل ، فصدمت العجوز لدى سماعها ذلك الكلام ، وقالت لابنتها :

ـ هذا غير معقول ياسيفدا .. هذا غير معقول .. انك متوهمة ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ لست متوهمة ياماما .. لست متوهمة .. أنا لاأقول انه لايحبني، لكنه ليس حراً، انه عبد ابيه وأمه، أما قلت لك انهم يختلفون عنا، انهم قوم متزمتون وصارمون وأنانيون وبلا مشاعر .. انهم لايحترمون الانسان إلا بمقدار مايملك .. صحيح ان ستويكو ليس مثلهم تماما .. لكنه بدأ يشبه أباه .. انه يجلس ويخطط معه ساعات طويلة من أجل شراء قطعة أرض يريد ان يبيعها أحد فقراء القرية بثمن أرخص .. ثم انه بدأ في الآونة الأخيرة يقضي ساعات طويلة في خمّارة القرية ... ولايأوي الى البيت إلا وهو يتعتع من السكر .. هذا بالاضافة الى انه يشكو من خور في صحته .. ان وجهه أصفر مثل البطيخ .. وكلما سأله أحد عن سبب ذلك يقول انه مريض ..

هزت الام رأسها بألم، ثم قالت لابنتها :

ـ اذا كان مريضا .. فلماذا لايذهب الى الطبيب .؟

ـ وهل يستطيع ان يذهب الى الطبيب دون ان يأمر أبوه بذلك ؟

ـ الى هذه الدرجة ؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ نعم الى هذه الدرجة واكثر ..

تأوهت كازالباشكا، وقالت لابنتها :

ـ كنت اظن ياحبيبتي انك سوف تسعدين عندهم .. هذا هو حظك ..

ـ لقد أدركت من تجربتي ياأمي ان الانسان لايستطيع ان يسعد ويتفاهم إلا مع أناس من جماعته .. اذا كان فقيرا مع الفقراء .. واذا كان غنيا فمع بني فئته ..

ـ هذا هو قدرك ياابنتي .. وماعليك إلا أن تصبري .. ان يورتالان غير مخلد .. غدا سيموت .. وسيرثه ابنه ..

ـ وما الفائدة من ذلك ..؟ الى ان يموت سيكون ابنه قد اصبح مثله ..

نفثت سيفدا من همومها كلها، وشعرت بشيء من الراحة، كأن عبئا ألقي عن كاهلها، وأقنعتها أمها بالعودة الى بيتها، والاستسلام لقدرها بانتظار رحمة الرب وعنايته .

منذ ذلك اليوم بدأت زيارات سيفدا لامها تتكرر، وكانت في كل مرة تحكي لأمها شيئاً جديداً، الى ان أتتها في احدى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المرات شبه منهارة، وجلست في المطبخ، وبكت بصوت عال، ورآها أبوها الذي أدرك لتوه أن ابنته معذبة في حياتها، بيد انه لم يتدخل في التفاصيل، بل اكتفى بأن قال لزوجته كازالباشكا:

ــ ألم أقل لك منذ البداية ان هذا الماء ليس لهذا الطين.. وانه كان علينا ان نعطي ابنتنا لأناس من طبقتنا.

لكن كازالباشكا انتهرته بقولها:

ــ على كل حال.. فأنا لم أكن سعيدة معك اكثر من سعادة ابنتي مع أهل زوجها..

فما كان من كازالباشيف إلا ان واسى ابنته ببضع كلمات، ثم خرج من المطبخ قاصدا البستان القريب، ليجلس تحت الشجرة ويفكر بهموم الحياة...

في ذلك اليوم قالت سيفدا لأمها ان حماتها ــ يورتالانكا ــ لم تتورع عن شتمها، وانها قالت لها ان النساء العاقرات يجلبن النحس أينما حللن، وان سبب مرض ابنها «ستويكو» هو فجيعته بعدم انجاب زوجته لطفل يحمل اسمه، وقارنت بينها وبين ابنتها «ميكا» التي اصبح لها ثلاثة أولاد،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأكدت لها انه بعد مضي ست سنوات على زواجها من ستويكو لن تنجب أبداً..

ترقرقت الدموع في عيني كازالباشكا ولم تستطع ان تقول لابنتها سوى عبارة:

ــ الله كريم ياسيفدا.. الله كريم..

وفي زيارة أخرى قالت سيفدا لأمها ان حالة زوجها ستويكو الصحية تتدهور يوما بعد آخر.. وانه يسمن ويشحب بصورة ملفتة للنظر، وانه ينام كثيرا، ولم يعد يحب العمل، حتى ان أباه العجوز يستيقظ قبله بساعتين، ويجلس وينتظرحتى ينهض من نومه، لكنه لاينهض إلا بشجار حقيقي، وانها متأكدة من ان ستويكو مريض، وأن حبه للنوم ليس كسلا أبدا، بل انه مرتبط بحالته الصحية، وانه لم يعد كما كان من قبل، حتى مع سيفدا نفسها، ذلك لان اهتمامه بالاشياء والناس قد انعدم تماما، فهو أشبه بمخلوق حي وميت في آن واحد، وانها خائفة عليه ولاتدري ماذا يمكن ان تفعل ؟..

استغربت «كازالباشكا» وقالت لابنتها:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـــ هذا أيضا حظنا .. لكنني لم اسمع بمرض من هذا النوع ..

تقولين انه يسمن، وتقولين انه ضعيف .. تقولين انه ينام كثيرا، وهذا يعني أن يشبع نوما وان ينهض نشيطا ليتابع عمله .. لكنك تؤكدين انه يظل كسولا دائما ..

كانت العجوز في الحقيقة لاتدري ماذا تقول .. حتى انها هي نفسها قد لاحظت عجزها عن التعبير عن شيء ذي معنى .. لذا فانها اكتفت بأن هزت كتفيها .. ونظرت الى ابنتها بأسى ..

ثم سألتها :

ـــ وأبوه ماذا يفعل ؟

ـــ ألم أقل لك ان أباه مستاء جدا .. إنه يرغي ويزبد .. ولايدري ماذا يفعل، البارحة مثلا كنت أنا الضحية .. كان على ستويكو ان يحضر عملية بيع جزء من المحصول .. وكان المشتري قد وعد الأب بأنه سيحضر مبكرا .. فلم يرضَ يورتالان أن يكلم ابنه في هذا الموضوع .. بل قال لي وهو يشعل سيجارة من أخرى .. قولي لستويكو ان ينهض .. فأدركت ان شرا سيقع .. ذلك لأن ستويكو الذي لم يعد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يحسب حسابا لأبيه .. لايمكن ان يمتثل لطلبي .. أما قلت لك انه قد تغير حتى معي .. لذا فانني ما ان ابلغته برغبة أبيه .. حتى أجابني بصوت عال، قولي لهم اني نائم .. وان بامكانه أن يؤجل بيع الذرة الى الغد .. ثم متى كان يطلعني على مايبيع ويشتري ؟.. فلما سمع أبوه ذلك .. جن جنونه .. فانقض عليه يريد أن يزدرده ..

فسألت كازالباشكا ابنتها سيفدا :

ـــ وماذا قال له ؟

أجابتها سيفدا :

ـــ قال له كلاما فظيعا أخجل من تكراره، أمامك .. ولم يكتف بذلك .. بل هدده بأنه سيعطي كل شيء لزوج ابنته تونيو .. فقال له ستويكـو .. أفعـل ماتشاء .. كل هذه الأمـور لاتهمني .. فما كان من أبيه إلا أن رمقه شزرا وقال له .. نحن نعلم ان زوجتك هي التي تعلمك .

فغرت كازالباشكا فاها مستنكرة ماسمعته من ابنتها .. وقالت لها :

ـــ يا لمصيبتك ياابنتي مع هؤلاء البشر ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بكت سيفدا.. وبكت أمها.. ثم أتى كازالباشيف من البستان، وأدرك ان ابنته جاءت لتبث همومها لأمها.. لكنه تظاهر بانه لم يفهم شيئا.. وطلب من زوجته ان تضع له شيئا ليأكل.. فما كان من سيفدا إلا ان قبلت يد أبيها.. وعادت الى بيتها..

كان الجو في بيت يورتالان يزداد سوءا يوما بعد يوم.. لكن سيفدا ما أن كانت تشعر بأن شجاراً ما سينشب بين عمها وزوجها حتى كانت تتوارى في غرفتها.. لأنها اصبحت تعلم جيدا أنه لابد من أن تلصق بها تهمة ما.. وغالبا ماتكون تلك التهمة صادرة عن عمها الذي اصبح يردد دائما ان كنته هي التي علمت زوجها على الكسل، وان ستويكو ليس مريضا.. وان المريض لايمكن ان يسمن..

جربت «سيفدا» اكثر من مرة ان ترجو حماتها بالتوسط بينها وبين عمها، لكن يورتالانكا امتنعت عن التدخل، وظلت صامتة..

وفي أحد الأيام لم يتمالك ستويكو نفسه، وهو يستمع الى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكلمات المقذعة التي كان يوجهها أبوه له، فبكى بكاء مرا، وأقسم على أنه مريض، وان زوجته ــ سيفدا ــ لاعلاقة لها بكل ذلك.. قال له يورتالان مستنكرا تبرئته لزوجته:

ــ لو كانت قد أنجبت لك أطفالا لما وصلت الى هذه الحالة..

كانت سيفدا في غرفتها، فما أن سمعت ذلك، حتى خرجت مسرعة وارتمت عند قدمي زوجها ترجوه ان يسمح لها بالذهاب للزيارة عند امها لمدة شهر.. فلم يتحمل ستويكو كل ذلك، فتحامل على نفسه، ونهض من فراشه، وقال لابيه:

ــ سوف آخذ زوجتي وسنذهب لنسكن عند حماتي.. هنالك على الأقل سأجد أناساً يعتنون بي.. ثم التفت الى زوجته وقال لها..

ــ وأنا أيضا سأذهب معك..

صعقت يورتالانكا عندما سمعت ذلك الكلام من ابنها، ولحقت بزوجها الذي خرج الى فناء البيت وهمست في اذنه أن يكف عن قسوة معاملته لابنه، وقالت له ربما كان مريضا حقا، أما ترى صفرة لونه، ثم انه ابنك وليس جميلا ان يسمع الجيران

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شجارنا كل صباح .. فما كان من يورتالان إلا أن أشعل سيجارة من أخرى وهز رأسه ، وخرج قاصدا المقهى .

أما سيفدا فانها جلست قرب زوجها تؤنبه على كسله ، وتقول له ان عليه ان يراجع طبيب القرية لتوه ، وانها مستعدة لأن تبيع قرطيها وتشتري له الدواء اللازم ، بيد ان ستويكو الذي يعرف عواطف زوجته تجاهه ، نظر إليها بكثير من الحنان ، وقال لها :

ـــ هذه ليست معاملة أب لابنه ؟.. ألست معي في هذا ياسيفدا ؟..

ترقرقت الدموع في عيني سيفدا ، وقالت لزوجها :

ـــ على كل حال فانه رجل عجوز ، ويجب ان تتحامل على نفسك ، وتساعده .. وهذا لايعفيك من مراجعة الطبيب .

حاول ستويكو ان يلبيَ رجاء زوجته ، بيد أن صحته كانت تسير من سيء الى أسوأ وكان يؤلمه شعور عميق من العتب على أبيه ، واستطاع يورتالان ان يقنع زوجته ان ابنها ستويكو لو أراد ان يعود الى سابق نشاطه لاستطاع فعلاً ، لكن زوجته «سيفدا» هي التى علمته الكسل ، وان الكسل في حد ذاته

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يجلب العلل، وانه قرر ان يطرد كنته من البيت، لكن سيفدا التي كانت تشعر بما يدور حولها، كانت لاتدع لعمها وحماتها حجة يتذرعان بها للتطاول عليها، اذ كانت تنهض قبل شروق الشمس، وتذهب الى الاصطبل لتحلب البقرات، ثم تخرج لتكنس أرض الدار، ثم تستقبل الفلاحات الاجيرات قبل ذهابهن الى الحقل، وتتبادل معهن بعض الأحاديث عن العمل، ثم تعد طعام الافطار للجميع وتوقظ اليكسي من نومه، وما ان يخرج يورتالان من غرفته مقطبا حتى ترتعد فرائصها، فتدخل الى المطبخ من جديد منتظرة صراخه وشجاره مع زوجها.

في صبيحة عيد القديس جيورجي... كان يورتالان قد قرر ان يغير أسلوب معاملته لابنه.. فما كان منه إلا ان جلس قربه على الفراش.. وسأله عن صحته.. وطلب منه ان يتحامل على نفسه وان يجلس معهم الى المائدة.. وبعد ان شرب ستويكو كأسا من الحليب كان قد قدمه له أبوه.. سأل يورتالان كنته

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سيفدا عن ابنه «اليكسي» فقالت له انه لم يعد الى البيت، فهز الحماة رأسها، وقالت لزوجها، وقد لاحظت انفعاله:

ـ لاتزعج نفسك في صبيحة عيد.. كل الشباب هكذا.. انه لايزال غرا.. اعتقد انه سهر طويلا عند صديقه «دانتشو» وبقي هناك..

هز يورتالان رأسه مصطنعا الموافقة على كلامها، وقال موجهاً كلامه لابنه «ستويكو»:

ـ اسمع يا «ستويكو».. لاشك في انني قد قسوت عليك اكثر من مرة.. لكنني أبوك.. ويجب ان تتحملني.. أنت ترى ان أعمالنا كلها متوقفة، أنا عجوز.. وأنت في الفراش... وأخوك لايزال غرا كما تقول أمك.. لكن كل هذا لايعني بحال من الأحوال انني لا أحبكم جميعا.. حتى سيفدا هذه فإنها كنتي وبمثابة ابنتي.. واذا كنت أوبخكم بين حين وآخر، فهذا لمصلحتكم أنتم.. قل لي ياستويكو وأنت انسان عاقل، كل هذه الأراضي التي اشتريتها بعرقي وجهدي لمن ؟.. أليست

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكم ؟:. صحيح انها مسجلة باسمي، لكنني لاأزال حيا، فغدا عندما أموت ستؤول اليكم أليس كذلك..؟

تشجعت سيفدا وقالت :

ـ طول الله عمرك ياعمي ..

هز يورتالان رأسه، وتابع موجها حديثه لابنه :

ـ والآن ياابني .. ياستويكو، وبمناسبة عيد القديس جيورجي .. ايقظتك كي تتناول طعام الفطور معي .. ولاسألك عما اذا كنت موافقا ان أشتري لك قطعة من الأرض بالدراهم التي ادخرتها معي ؟.. مارأيك ؟..

كان ستويكو الذي يعرف طبع أبيه جيدا قد أدرك لتوه ان تلك سياسة جديدة قرر أبوه ان يتبعها معه، فما كان منه إلا أن أجابه :

ـ الأمر أمرك ياأبي .. تصرف كما تشاء.

أشعل يورتالان سيجارة من أخرى وقال لابنه بلهجة اعتراض :

ـ لا .. لا .. ياستويكو .. ان لك معي أربعة آلاف ليفا .. فاذا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان الأمر أمري .. فان المال مالك .. سوف أشتري لك قطعة من الأرض، وسأسجلها باسمك .. قطعة الارض التي خلف الطاحون .. لقد سمعت قبل يومين في المقهى ان صاحبتها الارملة «يوفكا» تريد أن تبيعها .. سوف نشتريها منها .. ألست موافقا ..؟

هز ستويكو رأسه بالموافقة، وقال لابيه :

ـــ حسنا ياأبي .. حسنا ..

ابتسم يورتالان، والتفت الى كنته «سيفدا»، وقال لها :

ـــ وأنت ياسيفدا هل نسيت أهلك ؟.. خذي بعد قليل زوجك واذهبي لزيارتهم .

لم تصدق سيفدا ماسمعته من عمها لكنها ما ان تأملت وجهه لحظة، حتى أدركت انه جاد في قوله، فما كان منها إلا ان تهللت فرحة، وقالت له :

ـــ شكراً ياعمي .. إن أهلي سيفرحون كثيراً برؤيتنا أنا وستويكو ..

فأجابها يورتالان باختصار :

ـــ حسنا .. حسنا .. ليفرحوا .. يجب أن يفرحوا ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولما لاحظ ستويكو فرحة زوجته بزيارة أهلها، أحب ألا يخذلها، رغم ماكان يشعر به من وهن في أعضائه، فنهض وغسل وجهه، ودخل الى غرفته ليرتدي ثيابه، لكنه وجدها قد ضاقت عليه كثيراً، فساعدته زوجته على تزرير قميصه، وربط حذائه، ثم لبست هي ثيابها، وخرجا قاصدين بيت أهلها، بيد أن ستويكو لم يستطع إلا أن يتأبط ذراع زوجته التي قالت له في الطريق:

ــ سأقول لابي ان يصطحبك الى الطبيب.

فأجابها ستويكو:

ــ حسنا.. سوف أذهب..

وعندما رأت كازالباشكا صهرها ستويكو شهقت مذعورة وضربت بيدها على صدرها وقالت له بدورها:

ــ يجب ان تذهب الى الطبيب فوراً.. لو كان زوجي هنا اذن لذهب معك..

قال لها ستويكو، وقد شعر ان ذهابه الى الطبيب ضرورة ملحة:

ــ سأذهب وحدي.. ثم التفت الى زوجته وقال لها:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ ابقي أنت هنا عند أمك .. سأذهب أنا الى الطبيب .. ان عيادته قريبة من هنا ..

فسألته حماته :

ـ هل آتي معك ؟

فرفض ستويكو ذلك ، وقال لها :

ـ كلا .. كلا .. مازال بامكاني ان أذهب الى الطبيب ..!!

وفي العيادة قال الطبيب الشاب لستويكو بعد أن فحصه بدقة :

ـ إن مرضك جدي .. يجب أن تمتنع عن التدخين .. وأن تستريح .. وألا تأكل سوى الخضار المسلوقة .. وان تداوم على شرب الدواء بصورة منتظمة .. وان تراجعني بعد اسبوعين ..

وفي طريق عودته الى بيت عمه اشترى ستويكو الدواء من الصيدلية ، ولما وصل رأى زوجته واقفة أمام الباب تنتظره ، فهرعت إليه وأمسكته من يده ، وقادته الى غرفة الضيوف ، تلك التي تفوح منها رائحة (النفتلين) والتي كانت تستقبله فيها عندما كان خطيبها ، ونزعت له حذاءه ، وما أن روى لها ما قاله له

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطبيب حتى أجهشت بالبكاء، فسألتها أمها عن سبب بكائها، وقالت لها ان لكل داء دواء، وان الطبيب الجديد شاب طيب، ولم يتعالج عنده أحد من أهل القرية إلا وشفي تماما، ثم أحضرت لصهرها كأسا من الشاي، وجلست أمامه مبتسمة، وقالت له:

ـ لاتقلق ياصهري.. لاتقلق.. ماهي إلا بضعة أيام حتى تعود الى طبيعتك، ولكن لاتنسَ ان تأخذ الأدوية في أوقاتها المحددة..

كان ستويكو سعيدا بالعطف الذي لقيه من حماته.. فسألها بدوره عن صحتها، وعن صحة عمه (كازالباشيف) الذي كان كعادته غائبا في البستان، فما كان من العجوز إلا أن شكرته على حبه لهما، وقالت له انهما بخير، وان مايحز في نفسيهما هو قلة مشاهدتهما له ولزوجته، ثم التفتت الى ابنتها وسألتها:

ـ لماذا لاتجلبين زوجك وتأتيان لزيارتنا فابتسمت سيفدا ابتسامة لاتخلو من مرارة وقالت لامها:

ـ لو كان الأمر في يدنا لاتينا كل يومين.. ولكن..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فهزت كازالباشكا رأسها وقالت :

ـ نعرف .. نعرف ..

فاضافت سيفدا قائلة :

ـ تصوري أن أباه لو عرف انه قد راجع الطبيب سيغضب كثيراً، فهزت كازالباشكا رأسها مستغربة .. واكتفت بأن قالت :

ـ لا أعرف .. لا أعرف .. هذا أفضل ..

صدق ظن «سيفدا» فإن يورتالان ما أن علم من زوجته ان ابنه ستويكو قد راجع الطبيب حتى غضب غضبا شديدا، وقال ان هذا ليس سوى تمثيلية من تلفيق كازالباشكا وزوجها كازالباشيف، وان أهل سيفدا هم الذين علموا ابنه كل ذلك، بيد ان يورتالانكا التي كانت مقتنعة بمرض ابنها، بذلت جهدها من أجل أن تهدىء من غضب زوجها قدر الامكان لكن يورتالان كان يرفض كل ماتقوله له رفضا قاطعا، ويكرر قوله بأن الذنب هو ذنب كازالباشكا (اللعينة)، وبأن مرض ابنه هو مجرد دلال .. وانه لايصدق ان ستويكو قد ذهب الى الطبيب فعلا .. وانه مقتنع بأن كل ذلك كذب في كذب، واقسم يورتالان على أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يذهب الى الطبيب بنفسه ليتأكد منه ما اذا كان قد رأى ابنه أم لا ، واقسم أيضا على انه سيطرد زوجته من البيت اذا تحقق من الكذبة .

قال يورتالان كل ذلك ، ثم أشعل سيجارة من أخرى وخرج قاصدا الطبيب الذي قال له ان مرض ابنه خطير .. وعليه أن يستريح تماما .. وألا يدخن .. وان يتناول الأدوية بانتظام .. وان يراجعه بعد اسبوع .. ولم يكتف الطبيب بذلك بل أنّب العجوز على تقصيره في عرض ابنه عليه .. فما كان من يورتالان إلا ان شكر الطبيب ، وخرج من العيادة معكر المزاج وحزينا ، ولما وصل الى البيت حدث زوجته بما قاله له الطبيب .. بيد انه لم ينس ان يلعن الطب والأطباء وشباب آخر زمن الذين يمرضون دونما سبب .. وقال لزوجته انه قد خاض ثلاثة حروب ولم يحدث أن مرض يوماً واحداً .. وأشعل سيجارة من أخرى وأكد لزوجته شكه بمعرفة الطبيب .. ولما استنكرت يورتالانكا كلامه ، وقالت له إن لون ابنها أصفر ، وأن سمنته ليست طبيعية ، عاد يورتالان ليقول بأن الموضوع كله تمثيلية من اخراج كازالباشكا (اللعينة) وزوجها كازالباشيف .. ولابد انهما قد علما الطبيب أن يقول له ذلك ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولما كانت يورتالانكا تكره أهل كنتها فانها سكتت وقالت لزوجها :

ـــ حسنا .. لماذا لاتأخذ ابنك الى بلوفديف .. وتعرضه على أطباء المدينة .. ان كازالباشكا وزوجها لايعرفونهم .

في صباح اليوم الثاني أيقظ يورتالان ابنه ستويكو ، وقال له :

ـــ أريد ان آخذك الى بلوفديف .. أنا شخصيا لا أصدق طبيب القرية ؟.. انه شاب وليست لديه الخبرة الكافية . ان صهرك تونيو يعرف كبار الاختصاصيين هناك وبامكاننا أن نعرضك عليهم .

وافق ستويكو .. وسافر مع والده الى بلوفديف .. حيث بحثا عن تونيو الذي اصطحبهم الى المستشفى .. فسأل الاختصاصي المسن مريضه عما اذا كان قد عرض نفسه على طبيب من قبل ، وطلب منه ان يرى الوصفة ، ليقرر ماذا كان الدواء الذي يشربه جيدا ، فمد ستويكو يده الى جيبه وأخرج الوصفة وقدمها الى الاختصاصي الذي هز رأسه موافقاً ، وقال لستويكو :

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ نعم هذا هو علاجك.. بالاضافة الى الراحة التامة.. اتبع نصائح طبيبك في القرية.. ولا تأكل غير الاشياء المسلوقة.. إياك..

وعندما خرجوا من المستشفى لعن يورتالان الاطباء جميعا، واستأجر سيارة وعاد بابنه الى القرية، حيث استلقى ستويكو على فراشه وقد ازداد شحوبه، وبدأ يهذي بكلمات غير مفهومة، وجلست سيفدا قرب زوجها الذي طلب ماء كثيرا، وما لبث ان غط في نوم عميق، أما هي فقد سهرت حتى الصباح تفكر بالحالة التي آل اليها حبيبها ستويكو، وتتذكر كيف كان يزورها في بيتهم، قبل زواجهما، وكيف كانا يقضيان السهرات الممتعة قرب البئر في ساحة الدار..

وفي الصباح أتى يورتالان ليقول لابنه:

ـ كيف حالك الآن؟.. كل.. كل.. لا تستمع الى الاطباء.. مابك شيء..

عندما سمعت سيفدا ذلك لم تتمالك نفسها، وقالت لعمها:

ـ حرام عليك ياعمي.. أما ترى لونه؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فنظر يورتالان الى وجه ابنه، وهز رأسه ممتعضا وقال لكنته :

ـــ أنتم تعرفون الحرام ؟. وخرج ..

تحسنت صحة «ستويكو» بفضل رعاية زوجته له، فقد كانت تعطيه الدواء في مواعيده، وتسلق له البطاطا والكوسا، وتقشر له التفاح، وتشعره بأنها في حاجة قصوى الى شفائه، وما هي إلا أسابيع قليلة حتى تحسنت صحته، وصفا لونه بعض الشيء، ونهض من فراشه، واصبح يتجول في أرض الدار، ويسأل أمه المشغولة بحياكة جوارب من الصوف لابناء ابنتها ميكا عن صحتها، وهو أحوج ما يكون الى من يسأله عن حاله، وكانت سيفدا سعيدة بهذا التقدم الذي طرأ على صحة زوجها، وحدث في أحد الأيام ان مرض الأجير، واعتذر عن الذهاب الى الحقل فنظر يورتالان الى ابنه ستويكو نظرة ذات معنى، أدركها ستويكو لتوه، وقال لابيه :

ـــ سوف أذهب أنا ..

فقال له يورتالان :

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ اذهب .. اذهب .. سوف تتسلى بالعمل .. يجب أن تحرك عضلاتك ..

وذهب ستويكو الى الحقل، لكنه عاد مريضا، واستلقى على الفراش من جديد، وجلست سيفدا تبكي بحرقة، ثم قالت لحماتها، اذ لم يكن عمها يورتالان موجودا في البيت :

ـ أرجوك ياماما أن تقولي لعمي أن يأخذه الى صوفيا ..

فأجابتها يورتالانكا بلهجة حازمة :

ـ لقد أخذناه الى الاطباء .. هذه المرة سوف آخذه الى الخوجة التركي كي يكتب له رقية .. أنا أفهم اكثر منك .. لاتنسي انه ابني ..

بكت سيفدا بحرقة، ثم خرجت من غرفتها، وغسلت وجهها، وجلست قرب زوجها المريض لاتدري ماذا بامكانها ان تفعل ..

كان اليكسي الذي قضى أوقاته كلها في المقاهي والبساتين مع اصدقائه الذين يشبهونه بكسلهم قد نجح في امتحانات شهادة الدراسة الثانوية بدرجة «ضعيف» فلم يقبل سوى في المعهد التجاري المتوسط وقد رضي يورتالان بذلك لانه كان مصرا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على تعليمه، فارسله الى بلوفديف، حيث سجله صهره «تونيو» في ذلك المعهد واستأجر له غرفة في بيت تاجر من أصحابه، وكان ذلك التاجر في نفس الوقت يمت الى يورتالان بصلة قرابة بعيدة لذا فقد رجاه «تونيو» ان يكتب ليورتالان مباشرة عن كل تقصير أو سوء تصرف يبدو من اليكسي، ولم يمضِ شهران من الزمن حتى تسلم يورتالان رسالة من التاجر، يقول له فيها ان ابنه «اليكسي» مهتم بكل شيء سوى الدراسة، وأنه يبذر نقوده على اصحابه وأنه لايعود الى البيت إلا بعد منتصف الليل، فما ان قرأ يورتالان ذلك، حتى أسودت الدنيا أمام عينيه، وقال لزوجته انه سيسافر الى بلوفديف ليرى الموضوع بنفسه، وقد نفذ قراره فعلا، فحجز مكانا في السيارة، وما هي إلا ساعة من الزمن حتى كان في بيت التاجر، فسأله عن ابنه، فقالت له زوجة التاجر انه نادرا مايأتي الى البيت في مثل تلك الساعة المبكرة، فما كان من يورتالان إلا أن دخل الى غرفة «اليكسي» وتفحص أمتعته وكتبه، وجلس يشعل سيجارة من أخرى، وهو ينتظر عودته، بيد أن اليكسي لم يعد إلا بعد منتصف الليل، فما أن دخل الغرفة حتى تسمر في مكانه اذ رأى والده جالساً على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سريره ينتظره، فهبّ يورتالان من مكانه، وتقدم من ابنه وصفعه على وجهه صفعة طيرت الشرر من عينيه، وسأله:

ـ أين كنت ؟

تلعثم «اليكسي» وأجاب:

ـ كنت أدرس مع أصحابي..

ـ تدرس مع أصحابك ؟.. هل تعتقد ان مثل هذه الاكاذيب يمكن أن تنطلي علي ؟

أطرق اليكسي صامتا، فقال له أبوه:

ـ تعال اجلس أمامي يا ابن الكلب.. هل أرسلتك الى المدينة كي تتسكع مع أصحاب السوء.. أنا أرسلتك كي تدرس.. أردت ان يكون لي ابن متعلم.. وهذا في مصلحتك قبل أن يكون في مصلحتي.. بل هو في مصلحتك أنت فقط.. لقد اصبحت أنا رجلا عجوزا.. وأمك عجوز مثلي.. وأخوك مريض.. كيف تسمح لنفسك بأن تبذر نقودك على الآخرين.؟

ـ أنا لا أبذر نقودي..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ اسكت ياولد.. ياعاق.. تأكد انني على علم بكل تصرفاتك..

قضى يورتالان تلك الليلة مع ابنه ووبّخه بما فيه الكفاية، وهدده بحرمانه من الإرث ان هو لم يلتفت الى دروسه ويكف عن صحبة رفاق السوء، فخاف اليكسي كثيرا، وبكى كثيرا ووعد أباه بأن يرعوي، ويعود الى رشده، ويجد في دراسته، بيد أن يورتالان لم يكتف بذلك بل ذهب في اليوم الثاني الى المدرسة وقابل أساتذة ابنه ورجاهم إعلامه مباشرة بكل تقصير يبدر منه، وأودع لديهم عنوانه ثم عاد الى القرية.

في عطلة نصف السنة، عندما وصل اليكسي الى القرية أدعى أمام ابيه انه نسي جلاءه في بلوفديف لانه سافر على عجل فلم يصدق يورتالان ابنه وهدده بأنه سيذهب بنفسه ليأتي بالجلاء من غرفته، فبكى اليكسي، فأدرك يورتالان ان ابنه يكذب عليه، فضربه ضربا مبرحا، فلم تتمالك «سيفدا» نفسها، وهي التي كانت قد ربت اليكسي صغيرا ورعته، فتقدمت لتخلصه من بين يدي والده ثم جاءت «يورتالانكا» ترجو زوجها بأن يكف عن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ضرب ابنه ولم تنس ان تهمس في أذنه بأن ابنهم الكبير مريض ولايجوز أن يكون قاسيا الى تلك الدرجة مع اليكسي.

عاد اليكسي الى بلوفديف بعد انتهاء العطلة، وتابع يورتالان أخباره وكان يوصي صهره «تونيو» كلما رآه بأن يمر على اليكسي عندما يذهب الى بلوفديف ويكتب له عن تصرفاته، بيد ان العجوز ما لبث ان أهمل كل ذلك عندما أصيب ابنه «ستويكو» بانتكاسة شديدة جعلته بحالة صحية مروعة.

كانت «سيفدا» تشحب وتشحب، دون أن تدري ماذا بامكانها أن تفعل، ولم يكن «يورتالان» ليقترب من فراش ابنه إلا ليكلمه بأقسى الكلام وأغربه تأنيبا وسخرية، الأمر الذي كان يزيد من وطأة مرض «ستويكو» الذي كان في أمس الحاجة لسماع كلمات رقيقة ممن حوله، ولم تكن «سيفدا» لتجد تفسيرا لتلك المعاملة سوى ان الناس الفقراء هم أكثر حنانا من عمها، «يورتالان» وحماتها يورتالانكا.

بلغ مسامع «كازالباشكا» خبر انتكاسة صهرها «ستويكو»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فقالت لزوجها انها ذاهبة لزيارته، وسألته عما اذا كان يرغب بمرافقتها، فقال لها العجوز:

ـ لو كان «ستويكو» يعيش وحده مع ابنتنا «سيفدا» لما تركته يوما واحدا، ولكنت بعت بقراتنا وأخذته الى العاصمة لاعرضه على كبار الاطباء.. ولكن..

ـ الحق معك.. ولكن هل تعلم ان «سيفدا» عندما قالت لحماتها ان يأخذوا ابنهم الى صوفيا أجابتها بانها قد قررت عرضه على الخوجة التركي ليكتب له رقية..

ـ أعرف.. أعرف.. هم كذلك.. وأنا في الأصل، كما تذكرين جيدا، لم أكن موافقا على تزويج ابنتنا الوحيدة لهم.. قلت لك مرارا ان هذا الماء ليس لهذا الطين.. ولكن..

ترددت «كازالباشكا» كثيرا قبل أن تفتح الباب وتذهب لزيارة صهرها، بعد أن سمعت ما قاله زوجها، بيد أنها كانت تحب ستويكو، وقالت في سرها انني أقوم بواجبي تجاه زوج ابنتي، وليشرب «يورتالان» و «يورتالانكا» ماء البحر.

عندما دخلت «كازالباشكا» الى بيت «يورتالان» رمقها العجوز بنظرة لاتخلو من احتقار، أما زوجته يورتالانكا، فلم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تستطع أن تمتنع عن رد التحية والعودة الى حياكة الجورب الذي كان في يدها لابن بنتها «ميكا».. أما سيفدا فإنها أنست برؤية أمها وأجلستها على كرسي صغير قرب فراش زوجها الذي كان يئن أنيناً متواصلاً، فانهمرت الدموع من عيني «كازالباشكا» فما أن لاحظ «يورتالان» ذلك حتى أشعل سيجارة من أخرى ونهض ودخل الى غرفته، وما هي إلا لحظات حتى لحقت به زوجته، فقال لها: لماذا أتت هذه الحية الرقطاء الآن ؟.. أنا مازلت أصر على أنها أصل المصيبة.

لم توافق «يورتالانكا» رغم كرهها لحماة ابنها على ماقاله زوجها، فاعترضت على كلامه بقولها: أنت تعرف أنني مثلك لا أحبها.. إن هؤلاء الفقراء حسودون، وأنا لا أريدها ان تأت لزيارتنا.. لكن والحق يقال، لايمكن أن تكون لها علاقة بمرض «ستويكو».

في اليوم الثاني طرق باب يورتالان «حارس المختارية» وقال له إن مدير المنطقة الذي وصل الى القرية قبل قليل يريد أن يراه، فاستغرب «يورتالان» كثيرا، ثم ما لبث ان شعر بقلق شديد،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتذكر موضوع الصبي القتيل، لكن «يورتالانكا» قالت لزوجها انه لا علاقة بين رغبة مدير المنطقة برؤيته وبين ذلك الحادث الذي اصبح في خبر كان فتشجع يورتالان، وارتدى معطفه الأسود، ومسحت له زوجته حذاءه، وأشعل سيجارة من سيجارة وخرج من بيته قاصدا المختارية.

عندما وصل «يورتالان» الى هناك رأى عدداً من أهل القرية جالسين في الباحة، وتوهم انهم واجمون، وذلك عندما ردوا على تحيته باقتضاب وما أن دخل الى غرفة الانتظار حتى شعر بشيء من الرهبة وقال في سره ليس من المعقول ان يطلبني مدير المنطقة إلا لأمر هام، وما هي إلا لحظات حتى قدم له الآذن فنجان من القهوة، وقال له:

ـــ المختار مع مدير المنطقة في الداخل.. انهما يدرسان شيئا.. وقد قال لي المختار أن تنتظر قليلاً.

رشف يورتالان قليلا من القهوة، وغمغم قائلاً:

ـــ حسنا سأنتظر..

ماهي إلا ربع ساعة من الزمن حتى فتح المختار الباب مرحبا بيورتالان الذي نهض واقفاً فقال له المختار:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ إن سيادة مدير المنطقة يريد أن يتعرف إليك ..

اصطنع «يورتالان» ابتسامة فرح وأجاب المختار :

ـ يشرفني أن أتعرف الى سيادة مدير المنطقة .

عندما دخل «يورتالان» الى الغرفة شعر برجفة في أوصاله ، بيد أن مدير المنطقة نهض من مكانه باشا ، وقال موجهاً الكلام ليورتالان :

ـ أنا الذي يشرفني أن أتعرف الى وجيه القرية .

أجاب يورتالان :

ـ منذ أن علمت بأنكم هنا في القرية أدركت أنكم نمط جديد بين مدراء المناطق .. بارك الله بحكومتنا .

أشار مدير المنطقة الى يورتالان بأن يجلس أمامه ، وسأله عن صحة ابنه «ستويكو» وعن دراسة ابنه الصغير ، فاطمأن يورتالان من لهجة المدير على أن في الأمر خيراً ، وليس شراً ، كما كان قد تصور عندما ناداه الحارس من البيت ، وشكر السيد المدير على اهتمامه بابنائه ومضى يجيبه على كل الاسئلة التي طرحها عليه والتي كانت تدور عن أحوال القرية وحاجاتها وما يمكن أن تطلبه من مساعدات كي تقدمها لها الدولة ، ثم عاد من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جديد ليسأله عن أحواله وعن رغباته وقال له انه سيبلغ كل ذلك للسيد محافظ «بلوفديف» .

امتلأ يورتالان شعوراً بالثقة والاعتزاز ، اذ كان يسمع لاول مرة في حياته ان محافظ «بلوفديف» سيكون على علم برغباته الشخصية وباقتراحاته من أجل تحسين أحوال القرية ، ولكم كان سروره عظيما عندما قال له مدير المنطقة :

ـــ والآن اسمع ياسيد يورتالان ، ان السلطة في صوفيا قد وضعت نظاما إدارياً جديداً ، سوف نعمل على تطبيقه في مطلع العام القادم ، ويتلخص هذا النظام في أن يكون الى جانب كل

Telegram:@mbooks90

مختار تعينه الدولة مستشار منتخب من أهل القرية يساعده على إدارة أمورها ، ذلك لاننا أصبحنا نرسل (المختارين) من أبناء المدن ، ومن الخريجين الذين ليست لهم خبرة عملية طويلة ، لذا فقد ارتأت السلطة أن يكون الى جانب كل منهم مساعد من أهل القرية نفسها .. وأنت تعلم ياسيد يورتالان أننا جميعا في خدمة وطننا بلغاريا .. كما يجب أن تعلم ان لدى السلطة ترجمة مفصلة عن حياتك .. فأنت من أبطالنا الذين خاضوا ثلاثة حروب في الدفاع عن الوطن .. ولا أكتمك سراً

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن حزبنا موافق كل الموافقة على أن تشغل منصب المستشار ان كنت موافقاً على ذلك... كما أن جماعة القيصر لن يجدوا في شخصك مايدعوهم الى الاعتراض على انتقائنا لك.. ولا أخفيك سراً أيضا بأننا نعرف جيداً أنك غير محبوب من الفلاحين، ولكن هذا لايهم في شيء، فالسلطة بيدنا وان بإمكاننا ان نؤمن نجاحك في حالة ترشيحك لنفسك..

أشعل يورتالان سيجارة أخرى وقال لمدير المنطقة:

ـ ليس بإمكاني إلا أن أعتز بثقتكم بي. والآن مارأيكم في أن أذهب الى البيت وأنتظركم لتتناولوا طعام الغذاء عندنا.. ليكون بيننا خبز وملح..

أجابه مدير المنطقة بأنه موافق كل الموافقة، ولكنه يفضل أن يؤجل يورتالان ذلك الى المساء لانه لايزال مشغولاً مع المختار في أمور أخرى، فضحك يورتالان وقال:

ـ المهم أن أفرح بكم في بيتي.. وان يرى هؤلاء الفلاحون الذين قلتم انهم يكرهونني أي أناس كبار يزورونني..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ابتسم مدير المنطقة وقال المختار ليورتالان :

ـــ دعوتك مقبولة يا أخ يورتالان ... اذهب وانتظرنا ..

كانت مائدة العشاء عامرة بمختلف أنواع الطعام، اذ ان يورتالان كان قد أمر زوجته وكنته بأن يبذلا جهدهما من أجل (تبييض) وجهه أمام الضيوف الكبار، وما أن وصل مدير المنطقة بصحبة المختار حتى استقبلهما يورتالان بترحاب عظيم، وصب لهما نبيذا معتقا كان قد تعود حفظه لمثل هذه المناسبات.. ثم دعاهما الى المائدة، حيث أعجب مدير المنطقة بالأصناف التي أعدتها «سيفدا» مما أثار حفيظة عمها عليها، وفجأة طلب المختار من يورتالان أن ينادي ابنه «ستويكو» فلم يستطع العجوز الاعتذار، بل امتثل لرغبته وذهب الى الغرفة المجاورة، ليتأبط ذراع ابنه المريض ويجلسه بالقرب منه على المائدة، فما أن تأمل مدير المنطقة وجه ستويكو المنتفخ والأصفر حتى قال ليورتالان :

ـــ خذه غدا صباحا الى بلوفديف، وأدخله مستشفى خاصا وليس عموميا .. هنالك العناية أفضل ..

وما هي إلا ساعتين من الزمن حتى ودع الضيفان مضيفيهما وعادا الى المختارية .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يأخذ يورتالان ابنه لا الى بلوفديف.. ولا الى مستشفى خاص.. بل أخذه الى طبيب القرية الذي كتب له نفس الدواء، ونصحه بالراحة التامة، كما أنه لفت نظر يورتالان الى ضرورة العناية التامة بابنه، وعدم اطعامه سوى الخضار المسلوقة، ولما خرج يورتالان من العيادة لعن كعادته، الطب والأطباء وأوصل ابنه الى البيت بعد أن اشترى له الدواء، وقال لكنته «سيفدا»:

ــ نفس الدواء، ونفس الطعام..

وربت على كتف ستويكو قائلا:

ــ ليس في سلالتنا من يستسلم للاوجاع.

ثم خرج يورتالان الى المقهى ليبدأ دعايته الانتخابية، ولكم كان استغرابه شديدا إذ رأى أهل القرية يحتفون به، بعد أن كانوا يظهرون له الجفاء والاحتقار، فأدرك بدهائه أن السلطة اذا ما ارادت شيئا تستطيع أن تفعل من أجله أشياء، وقال في سره: سأنجح حتما..

وبينما كان يورتالان يتحدث الى بعض الناس في المقهى عن مشاريع السلطة من أجل تنظيم الريف، أتى ابنه اليكسي مذعورا وقال له:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ تقول لك أمي احضر الطبيب فورا وتعال الى البيت ..

اضطرب يورتالان لدى سماعه النبأ ، وخرج من المقهى مسرعا ، ومر على عيادة الطبيب ، واصطحبه معه ، وما أن وصلا الى البيت وعاين الطبيب حالة مريضه حتى قال ليورتالان وبلهجة لاتخلو من تأنيب شديد :

ـ الحق أقول لك ياعم .. انني لم أرَ في حياتي أهلاً مثلكم .. هذا الرجل يجب أن ينقل فوراً الى بلوفديف ، أو صوفيا .

هز يورتالان رأسه صامتا ، وأشعل سيجارة من سيجارة وقال للطبيب :

ـ الى بلوفديف .. هناك صهري «تونيو» سوف يعنى بأمر ادخاله الى المستشفى .

وسافر يورتالان مع ابنه ستويكو الى بلوفديف ، حيث أودعه في المستشفى وأعطى صهره حزمة من الليفات ، وقال له أن يدفع منها كل ماهو ضروري لشفاء ابنه ثم عاد الى القرية ، والى نشاطه الانتخابي .

كانت حالة ستويكو قد عكرت مزاج أبيه ـ يورتالان ـ كثيراً ، فلم يعد يتمكن من مجاملة الناخبين ، كما وأن الحالة في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بيته كانت سيئة جداً، ذلك لان كنته سيفدا كانت لاتكف عن البكاء، أما يورتالانكا فكانت تخرج بين ساعة وأخرى من البيت قاصدة الكنيسة، حيث كانت تشتري شمعة وتوقدها أمام أيقونة تمثل السيدة العذراء، ثم تعود واجمة بانتظار خبر عن ابنها، فقد كان صهرها «تونيو» يرسل لهم كل يوم رسالة مع سائق السيارة يصف لهم فيها حالة ابنهم ستويكو .. وقد كانت كل رسالة أسوأ من سابقتها .. الى أن وردت منه رسالة تقول : يجب أن تحضروا .. وكان هذا يعني بالنسبة ليورتالان ان يسافر هو وزوجته .. أما بالنسبة لسيفدا فهذا أمر غير وارد قطعا ..

سافر العجوزان وحدهما، وظلت سيفدا وحدها في البيت طيلة خمسة أيام، لاعمل لها سوى البكاء، والوقوف أمام صورة زوجها ستويكو المعلقة في صدر غرفتهما، وفي صباح اليوم السادس عاد يورتالان وزوجته من بلوفديف ومعهما صهرهما «تونيو» فلاحظت سيفدا ان الثلاثة واجمون جامدون، فهرعت نحو «تونيو» تسأله عن حالة زوجها فما كان منه إلا أن أجابها باقتضاب :

ـ ليرحمه الله .. انه في راحته الأبدية .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

انهارت سيفدا، وولولت يورتالانكا وأتت كازالباشكا، مشعثة الشعر تضرب وجهها بكفيها، وتسأل يورتالان: لماذا لم تأت به الى هنا، ليرقد في مقبرة القرية بين أقاربه وأحبابه ؟.. هل وصل بك الشح الى هذا الحد.؟

لم يكن يورتالان ليجيب على أي سؤال من هذا النوع.. بل كان يشعل سيجارة من أخرى غارقا في هموم كثيرة، فبالاضافة الى موت ابنه ستويكو كان قد علم من صهره «تونيو» زوج «ميكا» أن المدرسة قد طردت ابنه اليكسي لأنه هدد أحد الاساتذة.. هذا عدا عن انقطاعه هو عن خوض الانتخابات اذ كان قد وعد مديرْ المنطقة بتلبية رغبة السلطة.

كان الجو في بيت يورتالان قد اصبح لايطاق أبداً، لكنه كان على سيفدا أن تظل في بيت عمها سنة كاملة من تاريخ وفاة زوجها، لذا فقد قررت أن تلهي نفسها بالعمل خلال النهار.. في الاصطبل.. وفي المطبخ.. وفي الحقل.. أما في الليل فكانت تغلق باب غرفتها وتبكي حتى الصباح.. كما كانت تتحاشى ان تنظر الى وجه عمها المكفهر دائما.. والذي كان يعير ابنه «اليكسي» كلما أتى الى البيت بقوله:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ أين كنت يا راعي البط ؟.. لقد أردت أن أجعل منك رجلا وأنفقت عليك مئات الليفات لكنك عدت بخفي حنين ..

وكثيراً ماكان يورتالان يتشاجر مع زوجته التي كانت تمنعه من تأنيب وتوبيخ ابنها «اليكسي» .

كانت سيفدا تراقب كل ذلك عن كثب ، وقد عقدت العزم على عدم التدخل في كل تلك الأمور التي اصبحت لاتهمها بعد وفاة زوجها .. لكنها لم تستطع إلا أن تلاحظ ان اليكسي أيضا قد اصبح يتأخر في نومه كثيرا .. وهذا ما كان قد لفت نظر العجوز يورتالانكا التي صارحت زوجها بمخاوفها التي تحدثها بأن اليكسي متعب أيضا .

كانت سيفدا تستلق في فراشها مستسلمة لمصيرها التعيس ، مستعرضة أيام حياتها ، منذ كانت طفلة صغيرة تلعب في بيت أهلها الفقراء الى أن ظهر في حياتها الشاب «ستويكو» الذي كان قد غازلها في أكثر من عرس من أعراس القرية ، وتستعيد ذكرياتها معه وتسترسل في تأملاتها ثم تنهض لتنير

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المصباح، وتحمله الى أمام صورة زوجها الراحل كي تسأله بصوت خافت :

ـــ لماذا تركتني أيها الغالي ..؟

ثم تعود لتطفىء المصباح وتستلقي على فراشها من جديد لتسأل نفسها عن سبب بقائها في بيت يورتالان الذي يكرهها كراهية شديدة، ويراقبها بعين محمرة كلما مدت يدها لتأكل لقمة من طعامه، لكنها كانت تعود وتقول لنفسها صحيح أنني مازلت آكل من طعامهم، لكنني اشتغل لهم اكثر من ثلاث أجيرات..

هكذا كانت تمر الأيام والأسابيع على سيفدا المسكينة، وكان يورتالان يزداد قسوة في معاملتها، حتى أنها سمعته مرة وهو يقول لزوجته :

ـــ لماذا لاتذهب هذه الفاجرة الى بيت أهلها ؟.. فأجابته زوجته التي تكره سيفدا اكثر منه.. وأنا أيضا أريدها أن تذهب.. ولكن ماذا يمكن أن يقول عنا أهل القرية ؟.. ألا تعلم ان العادة هي أن تبقى الكنة في بيت حميها مدة عام كامل بعد وفاة زوجها بيد أن يورتالان لم يقتنع بكلام زوجته بل قال لها: حاولي أن تتشاجري معها.. فما كان من يورتالانكا إلا أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استجابت لرغبة زوجها، وأصبحت تغتنم الفرص من أجل ازعاج كنتها، دون أن تشعر بأي حرج يمكن أن يمنعها من توجيه أقذع الشتائم لها، الأمر الذي جعل سيفدا تمتنع عن الجلوس الى المائدة مع عمها وحماتها. لكن الاثنين معا كانا لايظهران أي اهتمام بذلك، وكانا يتساءلان فيما بينهما عما اذا كان باستطاعة الانسان ألا يأكل أبدا، وفي البداية كان يقول يورتالان لزوجته: لاتهتمي بها.. ان من يطبخ لايمكن أن يظل جائعا.. لكن شحوب وجه سيفدا يوما بعد آخر جعل العجوز يصدق كلام زوجته يورتالانكا التي كانت تؤكد له أن سيفدا لاتضع شيئا في فمها، وهذا مادفعه في أحد الأيام، حين جلسا هو وزوجته الى المائدة أن ينادي كنته قائلاً:

ـ تعالي وكلي معنا..

أجابته سيفدا قائلة: لست جائعة.

فما كان من يورتالان إلا أن عقب على ذلك بقوله: الأكل موجود على كل حال.

فقالت له كنته: إنني مشتاقة لأمي وأريد أن اذهب لزيارتها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فأجابها يورتالان : أنت تعرفين العادات جيداً .

فما كان من يورتالانكا إلا أن تدخلت في الحديث قائلة: إنها تعرف العادات .. لكنها تحب التسكع .

بكت سيفدا وقالت لحماتها : عن أي تسكع تتحدثين ، لقد مضى علي أكثر من ثمانية أشهر لم أشاهد خلالها أمي أبداً .

أجابتها حماتها :

ــ وابنتي «ميكا» هل تشاهدني في كل اسبوع ؟

لم تتمالك سيفدا أعصابها ، فانفجرت لتقول بصوت مرتفع :

ــ حرام عليك كل هذا الظلم ؟.. أنت تعرفين جيدا أن حياة «ميكا» ليست كحياتي .. أنا لا أحسدها .. لكن هذا لايعني انني عبدة لكم .. فقالت لها حماتها بغيظ شديد : لاتصرخي في وجهنا ولاتشبهي نفسك بابنتي .. أنت ابنة كازالباشيف .. وهي ابنة يورتالان .

فقالت لها الكنة :

ــ ان «كازالباشيف» الذي تتحدثين عنه بكل هذا الاحتقار

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يحترمكم، ولم يحدث ان أساء اليكم بكلمة قط، ثم لاتنسي أنه أبي، ولا اسمح لاحد بأن يهاجم أبي أمامي.

أشعل يورتالان سيجارة من أخرى، وأنهى الحديث بين زوجته وكنته بقوله:

ـ كل هذا الكلام لايفيدكما في شيء.. ثم التفت الى كنته وقال لها.. أما أنت اذا كنت مشتاقة لأهلك، فليس من أحد قد منعك من زيارتهم.

عندما سمعت سيفدا هذا الكلام من حميها، نهضت ولبست ثيابها، وخرجت قاصدة بيت أهلها.

روت سيفدا لأمها مادار بينها وبين والدي زوجها من ملاسنة، وبكت بكاء مراً فما كان من «كازالباشكا» إلا ان قالت لابنتها:

ـ مادام الأمر كذلك، فلا تعودي الى بيتهم وليقل أهل القرية مايريدون، ان هذه العادات هي التي تسبب كل هذا الألم.

فغرت سيفدا فمها مستغربة وقالت لامها:

ـ وهل هذا معقول ؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ معقول جداً .. ماداموا يعاملونك بهذه الوحشية .. فما عليك إلا ان تعامليهم بالمثل ..

ـ وأغراضي ؟

ـ أغراضك .. سوف يذهب أبوك ليأت بها . وما هي إلا برهة من الزمن حتى عاد كازالباشيف ، الى بيته قادما من عمله في البستان فقالت له زوجته :

ـ شد الحصان الى العربة ، واذهب الى بيت يورتالان ، واطلب أغراض ابنتك .

أدرك كازالباشيف لتوه ، ان سيفدا قد تركت بيت يورتالان ، وعادت اليهم ، لكنه سأل زوجته :

ـ هل مضى عام كامل على وفاة ستويكو ؟

فأجابته زوجته :

ـ انهم لايريدونها عندهم .. هذه هي خلاصة الحديث .. اذهب الآن ..

عندما وصل «كازالباشيف» الى بيت يورتالان قرع الباب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بتؤدة، ففتحت له «يورتالانكا» التي ردت على تحيته ببرود، فسألها «كازالباشيف»:

ـ هل الأخ يورتالان هنا ؟

ـ نعم هنا .. تفضل ..

أجتاز كازالباشيف عتبة باب دار يورتالان وهو يغمغم:

ـ جئت آخذ أغراض ابنتي .

عندما سمع يورتالان ذلك، نهض من مكانه واتجه نحو كازالباشيف وهو يقول:

ـ وهل جلبت العربة من أجل ماتسميه باغراض ابنتك ؟

ـ نعم .. صندوقها .. وسجادتها .. ومرآتها .. وكل حوائجها الشخصية ..

ارتعدت فرائص يورتالانكا، وقالت لوالد سيفدا:

ـ ليس لها عندنا سوى صندوقها .. أما الاشياء الأخرى التي ذكرتها فانها لي أنا .. وكنت قد أعرتها لابني أثناء زواجه .

صمت كازالباشيف لحظة ثم قال لها:

ـ حسناً .. سوف آخذ الصندوق .. ثم التفت الى يورتالان وقال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

له : كنت اعتقد أنك سوف تدعوني للجلوس قليلا كي نتفاهم ..

استغرب يورتالان ، وسأل كازالباشيف نتفاهم على ماذا ؟

ـ على قطعة الارض التي اشتريتها لستويكو اثناء مرضه وبدراهم التي كان يدخرها عندك ..

ـ عن أية أرض تحكي ؟ .. وعن أية دراهم ؟

ـ عن الارض التي قرب الطاحون .

ـ انك تحكي عن أرضي أنا .. وأنا لا أزال حيا .. هل بلغت بكم الوقاحة الى حد الطمع باملاكي ؟.. ثم من أنتم بالنسبة لي بعد موت ابني .؟

ـ اسمع يا أخ يورتالان ، ان الدراهم التي اشتريت بها هذه الارض هي من عرق جبين زوج ابنتي وابنتي معاً .. وأنت رجل غني ، فهل يضيرك شيء اذا أعطيت هذه الأرملة الصبية ربعها مثلا ؟

ـ كفاك هراء .. خذ صندوق ابنتك واذهب وقل لها ان تستحي قليلا ، لقد أكلت في هذا البيت اكثر من عشر سنوات .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ أكلت ولكنها كانت تقوم بعمل خمس أجيرات ..

ـ قلت لك خذ هذا الصندوق وانصرف .

تدخلت يورتالانكا في الحديث الدائر بين زوجها وابي كنتها قائلة :

ـ إننا نعطيك الصندوق مقفلاً دون أن نعلم بما فيه .. كان عليها ان تحضر بنفسها وان تفتح الصندوق أمامنا ثم تأخذه .

ـ عيب عليك ياأم ستويكو .. عيب .. ان ابنتي ليست لصة .. انه متاعها الشخصي .. صحيح اننا قوم فقراء .. لكن هذا لايعني اننا لصوص ..

ـ أنا لم أقل ان ابنتك لصة .. لكنها تعرف انني قد ضيعت قطعة قماش وأريد ان أتأكد بنفسي عما اذا كانت في هذا الصندوق المقفل أم لا ..

Telegram:@mbooks90

لم يأخذ كازالباشيف الصندوق ، بل اكتفى بأن هز رأسه بألم ، ونظر الى كلا الزوجين نظرة احتقار ، وجر عربته ، وعاد الى بيته .

في البيت قص كازالباشيف على زوجته وابنته ماجرى له

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مع يورتالان وزوجته، فما كان من سيفدا إلا ان نهضت حالا وقالت لابيها: أنا التي سوف أريه النجوم في عز الظهيرة..

لم يفهم كازالباشيف ما عنته ابنته، بل اكتفى بأن قال لها:

ـــ أنا رأيي أن تتركي لهم كل شيء.. ان ما نأكله أنا وأمك يكفينا نحن الثلاثة.

شع من عيني سيفدا بريق حقد عجيب لفت نظر ابيها، ولوحت يدها في الهواء كمن يهدد أحداً وقالت:

ـــ أنا التي سوف ألقن هذين المخلوقين المقيتين درسا يستحقانه بكل تأكيد.

صمتت كازالباشكا اذ أدركت أن ابنتها قد قررت ان تهدد يورتالان بقصة الصبي القتيل التي كانت قد علمت بها من سيفدا، بيد أن كازالباشيف لم يفهم شيئا، وعاد ليقول لابنته:

ـــ أنا رأيي ان تتركي لهم كل شيء..!

وصلت سيفدا الى بيت يورتالان، وفتحت الباب ودخلت، فصعق العجوزان لمرآها، لكنها لم تصبر عليهما كثيرا، بل ابتدرت عمها بقولها: لقد جئت لآخذ حقي بيدي..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رمق يورتالان كنته شزرا وقال لها :

ــ اذا كان الأمر هكذا ، فانك لن تأخذي حتى صندوقك .

أجابته سيفدا بكثير من البرود :

ــ واذا فضحتك وبينت للناس أنك قاتل الصبي ابن استاروف ؟

شعر يورتالان ان ماء ساخنا قد صب على رأسه ، وحدق في وجه سيفدا متظاهرا بأنه لم يفهم ماقالته ، وسألها بصوت متهدج :

ــ عن أي صبي تتحدثين ؟!

فأجابته سيفدا دون ان يطرف لها جفن :

ــ عن ابن استاروف أيها القاتل !!

جحظت عينا يورتالانكا ، ولم تتفوه بكلمة ، وشعرت ان العالم من حولها يدور بها ، ونظرت الى زوجها «يورتالان» تنتظر منه تصرفا ما يرد عنهم الخطر المحدق ، لكن يورتالان الذي كان قد أسقط في يده تماما ، ما لبث ان أشعل سيجارة ، وقال لسيفدا :

ــ ولكن لماذا لاتجلسين ؟!.. لقد جئت كما يبدو من أجل موضوع هام ، ومن يأتي من أجل موضوع يعتقد انه هام

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يجب أن يجلس ليشرح وجهة نظره !!.. ثم من قال لك انني قد قتلت ابن استاروف ؟!

ـ ابنك ستويكو !!

ـ ولكن هذا حديث أموات !!.

ـ اذا كان المسكين قد مات.. فان قبر القتيل مازال قائما.. مارأيك في أن أخرج من هنا، واذهب الى بيت العائلة المفجوعة بولدها، وأقول لاستاروف وزوجته ان قاتل ابنكما مازال حيا، وسيصبح مستشارا للهيئة الاختيارية.

ـ وما علاقة الهيئة الاختيارية.. بكل هذا ؟..

ـ اسمع يايورتالان.. يجب ألا تظن ان الناس لايفهمون لمجرد انهم فقراء.. ان مايمكنني أن أعرفه على أقل تقدير هو أنك ستقضي بقية حياتك في السجن.. بدلاً من أن تكون مستشارا.. ووجيه القرية الأول.. والمحترم..

تلعثم يورتالان، وهو يقول لكنته:

ـ ما كنت أتصور في يوم من الايام أنك ستسمحين لنفسك بأن تناديني باسمي.. دون أن تقولي لي ياعم.. أنت الامرأة المهذبة زوجة ابني ستويكو..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ كنت كذلك يايورتالان .. لكن لؤمك هو الذي اضطرني الى أن أكون غير مهذبة .

التفت يورتالان الى زوجته ، وقال لها :

ـ سيفدا محقة فيما تقول .. لقد كنا لئاما معها .. يجب أن تعطيها كل أغراضها .. هذا من حقها .

هزت يورتالانكا رأسها وقالت :

ـ حسنا .. لتأخذ ماتريد .. البيت بيتها .

فقالت لها سيفدا :

ـ الآن اصبح البيت بيتي .. عندما شعرتم بسيف العدالة المسلط فوق رؤوسكم ..

ابتسم يورتالان ابتسامة صفراء وقال لكنته :

ـ أنت اليوم على غير عادتك .. إجلسي .. إجلسي .. كي نتفاهم ..

أبت سيفدا الجلوس ، وأجابت :

ـ ماجئت لاجلس ..

ـ اذن لماذا جئتِ ؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـــ جئت لآخذ قطعة الارض التي قرب الطاحون .. لقد اشتريتها بدراهمنا أنا وزوجي أيها القاتل ..

ـــ اسمعي ياسيفدا .. لاتستعملي كلمة قاتل مع عمك .. أما كنت تحبين ستويكو ؟

ـــ نعم كنت أحبه .. ومن أجل هذا بالضبط فأنا مضطرة لاستعمال هذه الكلمة .. ولو كانت العدالة عدالة حقا لحاسبتك على ارتكاب جريمتين .. فأنت الذي قتلت ابن استاروف .. وأنت الذي قتلت ابنك ، وأنت الذي ..

ـــ اسكتي ياسيفدا .. اسكتي حرام عليك أن تخاطبي أباً مفجوعاً بابنه بهذه اللهجة اللاانسانية .. هل يقتل إنسان ابنه ؟.. هنا تدخلت يورتالانكا في الحديث وقالت :

ـــ لقد حرق موته قلوبنا ..

فقالت لها سيفدا :

ـــ ان قلوبكم أقسى من الصخر .. وأنا التي سأحرقها ..

تململ يورتالان في جلسته ، وهو يحس بدوار في رأسه وقال لسيفدا :

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ حرام عليك .. يجب أن تحترمي ذكرى ستويكو ..

فأجابته سيفدا :

ـ أيها الحقير الذي يقتل ابنه ويسير في جنازته .. لو كنت قد عالجته منذ بداية مرضه لما مات ..

ـ حسنا .. حسنا .. لو كنت قد عالجته لما مات .. والآن ماذا تريدين ..؟ سوف أعطيك نصف الأرض التي تتحدثين عنها ..

ـ لن آخذ إلا كل الارض لانها من حقي ... فهي من دراهمي ودراهم زوجي .. لقد اشتغلت عندك كأية أجيرة مظلومة طوال عشر سنوات ..

فقالت لها حماتها .. وقد أحست بارتفاع صوت سيفدا .. وخشيت ان يسمعها الجيران .

ـ اطمئني .. سوف تحصلين على قطعة الارض كلها .. نحن نملك قطعا كثيرة .. ولانرضى بأن تظل كنتنا بلا أرض تدر عليها ماتأكله .. نحن أناس نعجبك ..!!

ابتسمت سيفدا باشمئزاز وقالت ليورتالانكا :

ـ أنت لاتتدخلي فيما لايعنيك .. ان طلباتي لن تنتهي بمثل هذه البساطة التي تتصورينها ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فسألتها حماتها :

ـــ وما هي طلباتك اذن ؟..

التفتت سيفدا الى يورتالان وقالت له :

ـــ اسمع .. قطعة الارض هذه التي تتحدث عنها هي من حقي .. وسوف تعطيني ... بل سآخذ منك بالاضافة لها كرم العنب ثمنا لسكوتي عن جريمتك ..

فغر العجوز فمه .. وامتقع لونه .. وسأل سيفدا :

ـــ كرم العنب ..؟

ـــ نعم كرم العنب .. كرم العنب الكبير الذي اسمه كرم يورتالان .. سيصبح كرم سيفدا .. هل فهمت ..؟ أنا الآن عائدة الى بيتنا .. فكروا فيما قلته لكم جيدا .. وأنا بانتظارك غدا .. فإن قبلت بطلباتي سلمت من السجن والفضيحة ... وان لم تقبل .. فإن عذري معي ..

قالت سيفدا ذلك .. وخرجت عائدة الى بيت أهلها ..

في تلك الليلة لم يطبق ليورتالان أو زوجته جفن.. كان العجوز يشعل سيجارة من أخرى .. بينما كانت زوجته تشتم ذلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اليوم الذي تعرف فيه ابنها ستويكو على سيفدا.. وكان يورتالان يفكر ويفكر.. ثم يقول لزوجته:

كلامك هذا لايفيدنا في شيء..

ـ ما العمل اذن ؟

ـ سوف أذهب غدا سأتفاوض معها..

ـ واذا كانت قد افشت بالسر لامها الفاجرة ؟..

ـ لكل حادث حديث.. سوف اذهب، وأرى بنفسي.. واذا احتاج الأمر سأعطيها ماطلبته..

ـ هل ستعطيها الكرم أيضا ؟

ـ نعم.. الكرم أيضا.. هل أنت مجنونة.. ألا تعرفين معنى أن يعلم أهل القرية بأنني أنا الذي قتلت ابن استاروف ؟.. ألا تدركين معنى ان يأتي المحققون ليحققوا معي..؟.. هل تريدين أن أقضي بقية حياتي في السجن ؟!

سكتت يورتالانكا، كما لو أنها اقتنعت بكلام زوجها، وظل الاثنان ينتظران شروق الشمس، وما هي إلا ساعة من الزمن حتى علا صياح الديكة معلنا عن بدء اقتراب يوم جديد، كان يورتالان لايعلم ماذا يخبىء له..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في اليوم الثاني ذهب يورتالان الى بيت كازالباشيف، فاستقبلته كازالباشكا بكثير من الاشمئزاز، أما زوجها فقد كان كعادته في البستان، وما أن اختلى بسيفدا في غرفة الضيوف، حتى همس في أذنها سائلا :

ـــ أهلك هل يعلمون بما جرى ..؟!

لم تجبه سيفدا على سؤاله، بل اكتفت بأن قالت له :

ـــ إن علاقتك معي أنا .. وليست مع أهلي.

فقال لها يورتالان :

ـــ حسنا .. تعالي غدا كي نتفاهم ..

ـــ سآتي اذا كنا سنتفاهم .. وإلا ...

ـــ حسنا .. حسنا .. أقول لك تعالي غداً ..

ذهب يورتالان الى بيته، وجلس ينتظر سيفدا ثلاثة أيام بلياليها، ولما يئس من مجيئها، نهض الى صندوقه، وأخرج منه حزماً من الليفات أعطاها لزوجته وقال لها :

ـــ لقد قررت أن أسلم نفسي بنفسي للحكومة .. أنا لم أعد أتحمل هذا العذاب .. وأعتقد ان هذا أفضل لي من أن أظل تحت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رحمة ابتزاز الملعونة.. من يدري قد تأخذ منا الارض.. ثم تتزوج.. وتفشي السر لزوجها الذي سيهددنا أيضا.

ثم من يدري ما اذا كان أهلها يعرفون الموضوع.. أما هذه الدراهم فاعطيها لصهرنا تونيو، إياك ان تعطي منها ليفا واحدة لاليكسي، سلمي لي على تونيو وقولي له ان يتابع تجارتنا.. هل فهمت !!

فزعت يورتالانكا فزعا شديدا... وحاولت ان تمنع زوجها من تسليم نفسه لكنه أسرع في ارتداء ملابسه، وخرج من البيت.. ولم يعد..!!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رواية تتصل اتصالا وثيقا ببيئتها وزمانها وتقدم شخوصا وعلاقات اجتماعية وسلوكا وقيما ومعاناة.

ولأن جذور هذه الشخوص والمشكلات المعروضة عميقة الجذور في بيئتها المحلية، لذلك حملت شيئا من الشمول الانساني بجعل المطلع على النص متفاعلا مع مايجري متلهفا للدوافع ومتأثرا بها مباشرة، لأنه ينبش من ذاكرته احداثا وعلاقات وشخوصا مماثلة لما يعرضه المؤلف في هذه الرواية.

بطلة رواية الكنة كأنها واحدة من ابناء ريفنا العربي بمعاناتها وظروفها ومشكلاتها بل وعواطفها والشبه نفسه تقريبا ينطبق على نماذج مختلفة من الشخوص وربما على سائر العلاقات والاحداث والتطورات التي تفعل فعلها في تلك الأحداث.

Telegram:@mbooks90

علي عقلة عرسان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner